المنة

في إيضاح كتاب

شرح السنة

للإمام إسماعيل بن يحيى المزني

٢٦٤هـ

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

الميراث النبوي

للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

طبع بإذن المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم ميراث النبي كذا أتى ... في النص والعلماء هم وراثه

ما خلّف المختار غير حديثه ... فينا فذاك متاعه وأثاثه

رقم الإيداع القانوني: 2012-2725

ردمك: 978-9947-987-79-7

الميراث النبوي للنشر والتوزيع

الدار البيضاء - الجزائر العاصمة

الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات: 661409999 (00213)

الفاكس: 21966847 (00213)

البريد الإلكتروني: Dar.mirath@gmail.com

التوزيع في مصر: دار المستقبل

50- شارع منشية التحرير- جسر السويس - عين شمس- الشرقية

ت: 00201118328377

الجُنَّة

في إيضاح كتاب

شرح السُّنَّة

لِلإمام إسماعيل بن يحيى المزني
٢٦٤هـ

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
زيد بن محمد بن هادي المدخلي

الميراث النبوي
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام علىٰ من بعثه الله بالهدىٰ والنور المبين، نبينا محمدٍ عَبدِ الله ورسوله إلىٰ الثقلين، وعلىٰ آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

ففي وقت مضىٰ طلب مني نخبة من طلبة العلم ومحبيه أن أشرح لهم رسالة «شرح السنة» للإمام أبي إبراهيم المزني من علماء القرن الثالث الهجري، ومن أئمة السلف الصالح في أحد القرون المفضلة رَحِمَهُ اللَّهُ، وكانت الرسالة المسماة: «شرح السنة» جوابًا عن سؤال وُجِّه للإمام المزني من محبٍّ يريد أن يُعرِّف الناس موقف المزني المذكور من نصوص العقيدة الإسلامية، وبيان معانيها فيما يتعلق بأصول الاعتقاد، فجاء الجواب كافيًا شافيًا والحمد لله.

وبفضل الله وعونه تم لي شرح الرسالة المذكورة شرحًا مختصرًا وسهلًا يستفيد منه من قرأه لينتفع به وينفع به غيره من طلاب العلم، وقد أودع في أشرطة الكاسيت، ومكث بها وقتًا طويلًا بدون تدوين، حتىٰ تصدَّىٰ له أصحاب دار الميراث النبوي بالتدوين رغبة في نشره ليحرزوا الأجر

الوفير من العلي القدير.

وبعد إرساله إليَّ، وبعد النظر فيه أعدته للدار المذكورة ليقوم القائمون عليها بطبعه ونشره، وهم أهلٌ للعناية بكتب علوم الشريعة ووسائلها وفي مقدمتها علم العقيدة الإسلامية التي لا غنىٰ لأحد عن فهمها والعمل بمقتضاها.

فجزاهم الله خير الجزاء، وزادهم بصيرة وقوة في القيام بأغلىٰ ميراث خُلِّف؛ ألا وهو الميراث النبوي الثمين.

وقد سمَّيت هذا الشرح المختصر:

«الجنة في إيضاح كتاب شرح السنة»

أسأل الله أن يجعله لنا جُنة من النار، آمين.

المؤلف

٢٨/ ١/ ١٤٣٣هـ

ترجمة مختصرة
للإمام إسماعيل بن يحيى المزني[1]

اسمه:

هو الإمام، العلامة، فقيه الملة، عَلَم الزهاد، أبو إبراهيم، إسماعيل بن يحيىٰ بن إسماعيل المصريّ، صاحب الشافعي وتلميذه.

مولده:

كان مولده رَحِمَهُ اللَّهُ في سنة موت الليث بن سعد، وهي سنة خمس وسبعين ومائة.

مؤلفاته:

صنَّف «الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير» ومختصره «مختصر المزني»، و«المنثور»، و«المسائل المعتبرة»، و«الترغيب في العلم»، و«كتاب الوثاق»، وكتابنا الذي يَسَّر الله شرحه، وغيرها، وصلَّىٰ لكل مسألة في

(١) انظر ترجمته في: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٣/ ٢٧٨)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٩٢).

مختصره ركعتين، فصار أصل الكتب المصنفة في المذهب، وعلىٰ منواله رتَّبوا، ولكلامه فسَّروا وشرحوا.

مما قيل فيه:

قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: أخبرنا محمد بن عبد الله بن شاذان، سمعت محمد بن علي الكتاني، وسمعت عمرو بن عثمان المكي يقول: ما رأيت أحدًا من المتعبدين في كثرة من لقيت منهم أشد اجتهادًا من المزني، ولا أدوم علىٰ العبادة منه، وما رأيت أحدًا أشد تعظيمًا للعلم وأهله منه، وكان من أشد الناس تضييقًا علىٰ نفسه في الورع، وأوسعه في ذلك علىٰ الناس، وكان يقول: أنا خُلُقٌ من أخلاق الشافعي.

وقيل فيه: كان رَحِمَهُ اللَّهُ عابدًا، مجاب الدعوة، عظيم الورع.

وقال الذهبي: وكان زاهدًا، عالمًا، مناظرًا، محجاجًا، غوَّاصًا علىٰ المعاني الدقيقة.

قال ابن أبي حاتم: سمعت من المزني وهو صدوق.

وقال أبو سعيد بن يونس: ثقة، كان يلزم الرباط.

وكان يغسل الموتىٰ تعبدًا واحتسابًا، وهو القائل: تعانيت غسل الموتىٰ ليرق قلبي، فصار لي عادة، وهو الذي غسل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

من مشايخه:

حدث عن: الشافعي، وعن علي بن معبد بن شداد، ونعيم بن حماد، وغيرهم.

وهو قليل الرواية، ولكنه كان رأسًا في الفقه.

من تلاميذه:

حدث عنه: إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة، وأبو الحسن بن جوصا، وأبو بكر بن زياد النيسابوري، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو نعيم بن عدي، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأبو الفوارس بن الصابوني، وخَلق كثير من المشارقة والمغاربة.

منزلة كتابه المختصر:

امتلأت البلاد بـ«مختصره» في الفقه، وشرحه عدة من الكبار، بحيث يقال: كانت البكر يكون في جهازها نسخة من «مختصر المزني».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا فرغ من تبييض مسألة وأودعها مُختَصَرَهُ صلَّىٰ لله ركعتين.

عقيدته:

قال عمرو بن تميم المكي: سمعت محمد بن إسماعيل الترمذي قال: سمعت المزني يقول: لا يصح لأحدٍ توحيدَ حتىٰ يعلم أن الله تعالىٰ علىٰ

العرش بصفاته.

قلت له: مثل أي شيء؟ قال: سميع، بصير، عليم.

وكتابه هذا بيان واضح علىٰ صحة عقيدته.

وفاته:

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رمضان، لِستٍّ بقين منه، سنة أربع وستين ومائتين، وله تسع وثمانون سنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبَرَنَا الفَقِيهُ الإمَامُ: شَمسُ الدِّينِ، أبُو العِزِّ، يُوسُفُ بنُ عُمَرَ بنِ أبي نَصرٍ الهَكَّارِيُّ فِي شَهرِ صَفَرٍ، سَنَةَ سِتَّ عَشرَةَ وَستِّمِائَةٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا الشَّيخُ الإمَامُ الحَافِظُ الثِّقَةُ بَقِيَّةُ السَّلَفِ: أبُو إسحَاقَ إبرَاهِيمُ بنُ عُثمَانَ بنِ عِيسَىٰ بنِ دِربَاسٍ المَارَانِيُّ، مِن لَفظِهِ، بِالمُوصِلِ، فِي تَاسِعَ عَشَرَ مِن جُمَادَىٰ الأُولَىٰ، سَنَةَ إحدَىٰ عَشرَةَ وَستِّمِائَةٍ، قَالَ: أخبَرَنَا الشَّيخُ الصَّالِحُ العَالِمُ: أبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ أحمَدَ بنِ حَمدِ بنِ مُفَرِّجِ بنِ غَيَّاثٍ، الأرتَاحِيُّ، بِقِرَاءَتِي عَلَيهِ، بِفُسطَاطِ مِصرَ، قَالَ: أخبَرَنَا الشَّيخُ المُسنَدُ العَالِمُ: أبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ الحُسَينِ بنِ عُمَرَ المُوصَلِيُّ الفَرَّاءُ، فِيمَا أذِنَ فِيهِ لِي.

ح: قَالَ الشَّيخُ إبرَاهِيمُ بنُ عُثمَانَ:

وَأخبَرَنَا الشَّيخُ الإمَامُ الفَقِيهُ الحَافِظُ: أبُو طَاهِرٍ، أحمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أحمَدَ ابنِ مُحَمَّدِ بنِ إبرَاهِيمَ بنِ سِلَفَةَ، الأصبَهَانِيُّ، السِّلَفِيُّ فِي كِتَابِهِ إلَينَا مِنَ الإسكَندَرِيَّةِ، فِي رَبِيعٍ الآخِرِ سَنَةَ أربَعٍ وَسَبعِينَ وَخَمسمِائَةٍ، قَالَ: أخبَرَنَا الشَّرِيفُ أبو مُحَمَّدٍ عَبدُ المَلِكِ بنُ الحَسَنِ بنِ بِتِنَّةَ، الأنصَارِيُّ بِمَكَّةَ، بِقِرَاءَتِي عَلَيهِ، فِي سَنَةِ تِسعٍ وَتِسعِينَ وَأربَعِمِائَةٍ، قَالَا: أخبَرَنَا أبُو عَبدِ اللهِ الحُسَينُ بنُ عَلِيٍّ النَّسَوِيُّ الفَقِيهُ -قَدِمَ عَلَينَا مَكَّةَ-، أخبَرَنِي أبُو مُحَمَّدٍ إسمَاعِيلُ بنُ رَجَاءَ بنِ سَعِيدٍ، العَسقَلَانِيُّ، بِعَسقَلَانَ، أخبَرَنِي أبُو الحُسَينِ

مُحَمَّدُ بنُ أحمَدَ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ المَلطِيُّ، وَأبُو أحمَدَ مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الرَّحِيمِ القَيسَرَانِيُّ، قَالَا: أخبَرَنَا أحمَدُ بنُ بَكرٍ اليَازُورِيُّ.

قَالَ: حَدَّثَنِي الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ اليَازُورِيُّ الفَقِيهُ، حَدَّثَنِي عَلِيُّ بنُ عَبدِ اللهِ الحُلوَانِيُّ، قَالَ: كُنتُ بِطَرَابُلسِ المَغرِبِ، فَذَكَرتُ أنَا وَأصحَابٌ لَنَا السُّنَّةَ، إلَىٰ أن ذَكَرنَا المُزَنِيَّ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَالَ بَعضُ أصحَابِنَا: بَلَغَنِي أنَّه يَتَكَلَّمُ فِي القُرآنِ وَيَقِفُ عِندَهُ، وَذَكَرَ آخَرُ أنَّهُ يَقُولُهُ، إلَىٰ أنِ اجتَمَعَ مَعَنَا قَومٌ أُخَرُ، فَغَمَّ النَّاسَ ذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا، فَكَتَبنَا إلَيهِ كِتَابًا نُرِيدُ أن نَستَعلِمُ مِنهُ؛ فَكَتَبَ إلَينَا «شَرح السُّنَّة» فِي القَدَرِ وَالإرجَاءِ وَالقُرآنِ وَالبَعثِ وَالنُّشُورِ وَالمَوَازِينِ وَفِي النَّظَرِ، فَكَتَبَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَصَمَنَا اللهُ وَإيَّاكُم بِالتَّقوَىٰ، وَوَفَّقَنَا وَإيَّاكُم لِمُوَافَقَةِ الهُدَىٰ.

أمَّا بَعدُ:

فَإنَّكَ -أصلَحَكَ اللهُ- سَألتَنِي أن أُوضِحَ لَكَ مِنَ السُّنَّةِ أمرًا تُصَبِّرُ نَفسَكَ عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِهِ، وَتَدرَأُ بِهِ عَنكَ شُبَهَ الأقَاوِيلِ، وَزَيغَ مُحدَثَاتِ الضَّالِّينَ، وَقَد شَرَحتُ لَكَ مِنهَاجًا مُوضِحًا لَم آلُ نَفسِي وَإيَّاكَ فِيهِ نُصحًا، بَدَأتُ فِيهِ بِحَمدِ اللهِ ذِي الرُّشدِ السَّدِيدِ.

الحَمدُ للهِ أحَقُّ مَن ذُكِرَ، وَأولَىٰ مَن شُكِرَ، وَعَلَيهِ أُثنِيَ.

١ - الوَاحِدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَيسَ لَهُ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، جَلَّ عَنِ المَثِيلِ، فَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ، السَّمِيعُ البَصِيرُ، العَلِيمُ الخَبِيرُ، المَنِيعُ الرَّفِيعُ.

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

هذه الرسالة كما يظهر من المقدمة أنها جواب عن سؤال؛ عن أشياء تتعلق بالعقيدة وبيان ما يضاد الاعتقاد الصحيح، فابتدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بالبسملة لما في البدء فيها من البركة والتعظيم لله عَزَّوَجَلَّ والبدء بذكره، كما قال ﷺ: «**كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع**»[(١)]، وفي رواية: «**أجذم**»[(٢)]؛ أي: قليل البركة.

ثم ابتدأ الرسالة بالدعاء كما هي عادة المؤلفين في علوم الشريعة، فقال: (**عصمنا الله وإياكم بالتقوىٰ**) وهو مأخوذ من قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣]. فدعا المؤلف بالعصمة التي

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٨٧١١)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٨٩٤)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» برقم (١٠٢٥٥)، وفي «عمل اليوم والليلة» برقم (٤٩٣)، وابن حبان في «الصحيح» برقم (١).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٤٨٤٠)، وهو عند الطبراني في «الكبير» برقم (١٤١) بلفظ: «أجذم»، والحديث بلفظيه ضعفه الألباني في «الإرواء» (١/ ٣٠) (٢).

هي الحِفظ، وذلك بالتزام تقواه في الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

وحيث إنه لا يوفَّقُ إلا من وفقه الله -تبارك وتعالىٰ- أتبع ذلك بالدعاء بالتوفيق؛ فقال: (**ووفَّقنا وإياكم لموافقة الهدىٰ**)؛ أي: ألهمنا وثبَّتنا وسدَّدنا وإيَّاكم -أيها السامعون والسائلون- لموافقة الهدىٰ؛ أي: لأن نوافق الهدىٰ في كل ما نأتي ونذر، والهدىٰ هدىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-، دين الإسلام، وضد الهدىٰ: الضلال والغواية.

ثم شرع في المقصود بعد قوله: (**أما بعد**)؛ وهي كلمة يؤتىٰ بها في الخطب وفي المؤلفات وفي الخطابات، حتىٰ قيل إنها فصل الخطاب، وهي للانتقال من موضوع إلىٰ موضوع آخر، فكأنه هنا انتقل المؤلف من موضوع الدعاء بالعصمة له ولكل سامع وقارئ، وبالدرجة الأولىٰ من سأله، والتوفيق والسداد إلىٰ الشروع في الموضوع، فقال: (**أما بعد**)، وهي عند علماء النحو بمعنىٰ: مهما يكن من شيء فالأمر كذا، فكأنه قال: مهما يكن من شيء أصلحك الله.

وكذلك في قوله: (**أصلحك الله**)؛ دعاءٌ بالصلاح؛ صلاح القلوب، وصلاح الجوارح، فمن صَلَح قلبه صلحت جوارحه، كما قال النبيﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله**»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فَضلِ مَنِ استَبرَأَ لِدِينِهِ، برقم (٥٢)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩).

وضدُّ الصلاح الفساد؛ فمن فسد قلبه فسدت جوارحه وسائر أعماله، للحديث المذكور: «**وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه**».

وفي قوله: (**سألتني أن أُوضِحَ لك من السُّنَّة أمرًا تُصبِرُ نفسك على التمسُّك به**)؛ أي: سأله أن يُرشده إلىٰ أمرٍ يتمسَّكُ به ظاهرًا وباطنًا يتعلَّقُ بالاعتقاد، ومن ذلك: الكلام في القدر والإرجاء والقرآن الكريم والبعث والنشور والموازين.

قال: (**وتدرأُ به عنك شُبهَ الأقاويل**)؛ لأن الأمر الحق في تصحيح الاعتقاد أدلة الكتاب والسنة، من عرفها وتمسك بها استطاع أن يدفع بها شُبَه أهل الزيغ والضلال من أهل التحريف والتشبيه والتمثيل والتعطيل والتأويل.

قال: (**وزيغَ محدثات الضَّالِّين**) والمحدثات هي البدع، والضَّالُّون هم الجاهلون الذين جهلوا الحق فلم يعلموه ولم يعملوا به، ولمَّا كان النصارىٰ جاهلين سمَّاهُم الله ضالِّين في قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

فالمغضوب عليهم: اليهود، والضَّالُّون: النصارىٰ، ومن تشبَّهَ بهاتين الأمتين من أمة محمد -عليه الصلاة والسلام- فهو منهم فيما تشبَّهَ بهم فيه، ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من فسَدَ من عُلماءنا ففيه شبهٌ من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبهٌ من النصارىٰ[1].

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٩٧)، وابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٨).

وفي الحديث الثابت: «**ومن تشبَّهَ بقومٍ فهو منهم**»[1]؛ أي: هو منهم فيما تشبَّه بهم فيه، ولا يلزم من ذلك أنه كافر ككفرهم، فقد يتشبه بهم في بعض الخصال التي يكون بها عاصيًا ومخطئًا، ولكنها لا تخرجه من الإسلام فيأخذ جزاءه عليها.

ثم وعده الجواب بقوله: (**وقد شرحتُ لك منهاجًا موضحًا منيرًا لم آلُ نفسي وإيَّاك فيه نُصحًا**)؛ يعني: لم يقصِّر فيه من النصح لي ولك، وإنما أبلغ جهدهُ ناصحًا في البيان بأدلة الكتاب والسنة.

قال: (**بدأتُ فيه بحمدِ الله**) كما هي السنة، وحمدُ الله -تبارك وتعالىٰ- من أفضل الدعاء وخير الذكر، وفي الحديث: «**كل أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم**».

وفي رواية: «**أقطع**»؛ أي: قليل البركة، وقد أرشد الله -تبارك وتعالىٰ- الأمة؛ لأن يحمدوه في كلِّ حال من الأحوال، فقال في أعظم سورة من القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

وأمرَ بذلك في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٥١١٤)، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٠٣١)، والبزار في «المسند» برقم (٢٩٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٤١٠٩)، وفي «الأوسط» برقم (٨٣٢٧)، والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (٥/ ١٠٩) (١٢٦٩).

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] وغير ذلك كثير.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف:١-٢] الآية، فهي كلمة كل شاكرٍ، وذكر لله -تبارك وتعالىٰ-.

ومعنىٰ الحمد: الثناء علىٰ الله بالجميل الاختياري، والله -عز شأنه- أحقُّ من ذُكِرَ بالحمد وأثنىٰ عليه عباده بذلك، فله الحمد دائمًا وأبدًا، وله الشكر كذلك علىٰ كلِّ نعمة أنعمها من نعم الدين والدنيا.

قال: **(وأولىٰ من شُكر، وعليه أُثني، الواحدُ الصَّمد)**، الواحد من أسماء الله، وهو دالٌّ علىٰ الوحدانية؛ أي: أن الله وحده المستحقُّ للعبادة دون سواه، كما قال ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]؛ إذن فهو اسم لله ﷻ يدلُّ علىٰ الوحدانية؛ أي: إن الله الذي انفرد بالخلق والرزق والتدبير هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

الصَّمد: اسم لله -تبارك وتعالىٰ-، ومعناه: السَّيد المالك المتصرِّف

الذي تصمدُ إليه العباد في حوائجها، فيقضي الحاجات ويفرِّج الكربات.

ولمَّا أثبت له من الأسماء الدالة علىٰ صفات الكمال نفىٰ عنه صفات النقص والعيب ومشابهة المخلوقات فقال: **(الذي ليس له صاحبة ولا ولد)**، وذلك كما قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

وقال -عز شأنه-: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤]؛ فجمع المؤلف هنا بين إثبات صفات الكمال لله ﷻ ونفي صفات النقص والعيب عن الله -تبارك وتعالىٰ-، إذ ذلك هو معتقد ومنهج أهل السنة والجماعة، الطائفة الناجية المنصورة.

وقوله: **(جلَّ عن المثيل)**؛ أي: تنزَّه أن يكون له مثيل من مخلوقاته، بل هو صاحب الكمال المطلق ذاتًا وأسماءً وصفاتٍ وأفعالًا، وقد قال ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]؛ والجواب: لا سمي؛ أي: لا مثيل له ولا شبيه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وقوله: **(فلا شبيه له)**؛ أي: لا يُشبهه شيءٌ من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه، ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو صاحب الكمال المطلق، ومخلوقاته مُفتقِرة إليه في كل شأن من شئونهم، فلا شبيه له من

مخلوقاته كما تزعم فرق التشبيه.

قوله: (ولا عديل)؛ أي: لا يعدِلهُ شيءٌ، فلا يساويه شيءٌ ولا يماثلهُ شيءٌ من مخلوقاته، لأنه هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو المعبود وما سواه عبد، وهو الغني وما سواه مُفتقِرٌ إليه، وإذ كان الأمر كذلك وهو كذلك فلا شبيه له ولا عديل له ولا مثيل.

وقوله: (السميع البصير، العليم الخبير، المنيع الرفيع)؛ هذه أسماء من أسماء الله الحسنىٰ، كل اسم دلَّ علىٰ صفة.

فقوله: (السميع) اسم لله ﷻ دلَّ علىٰ إثبات صفة السمع الذاتية؛ سمع يليق بعظمة الله وجلاله.

والبصير: اسم لله ﷻ دلَّ علىٰ إثبات صفة البصر لله، فهو يبصر جميع مخلوقاته في سمواته وأرضه وبين ذلك، لا يخفىٰ عليه شيء من ذوات المخلوقات ولا من أعمالهم ولا من أقوالهم ولا من تصرفاتهم الظاهرة والخفية.

وهو العليم: فالعليم اسم لله ﷻ دلَّ علىٰ صفة ذاتية، وهي صفة العلم صفة تليق بعظمة الله وجلاله، وكل علم في الخلق فهو من علم الله، وتعليم الله لهم بواسطة الرسل الكرام والكتب المنزلة، فعلمه لائقٌ بجلاله، كاملٌ بكماله، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٥].

والمنيع: القوي الغني القادر، والقاهر والغالب.

والرَّفيع: رفيع القدر ورفيع الشأن، والعالي فوق كلِّ شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وهذه المقدمة تسمىٰ: براعة الاستهلال؛ لأن الموضوع يتعلق بتصحيح الاعتقاد، وبيان ما ينافي عقيدة أهل السنة والجماعة في باب عقيدة التوحيد، فابتدأها بذكر شيء من أسماء الله -تبارك وتعالىٰ- وصفاته كما رأيت، والله أعلم.

٢- عَالٍ عَلَىٰ عَرشِهِ، وَهُوَ دَانٍ بِعِلمِهِ مِن خَلقِهِ.

٣- أحَاطَ عِلمُهُ بِالأُمُورِ، وَأنفَذَ فِي خَلقِهِ سَابِقَ المَقدُورِ، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

الشرح:

باب العُلُوِّ؛ أي: علو الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ عرشهِ، وللعلوِّ ثلاثة معان:

١- علو الله بذاته فوق عرشه: فهو عالٍ علىٰ عرشه قد استوىٰ عليه استواء يليق بعظمته، بائن من مخلوقاته؛ أي: ليس في شيء من مخلوقاته، وليس فيه شيء من مخلوقاته.

٢- علو الشأن والعظمة: فالله ﷻ شأنهُ عظيم، له العلو؛ أي: علو الشأن والعظمة.

٣- علو القهر والغلبة: كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

وأهل البدع لم ينازعوا في علو القهر والغلبة والعظمة والشأن، وإنَّما نازعوا وضلُّوا في علو الله ﷻ فوق مخلوقاته بذاته، فمنهم من أنكر العلو وجحد هذه الصفة؛ كالجهمية، والمعتزلة، ومن وافقهم من أهل البدع.

ومنهم من فسَّرهُ بتأويل باطل مذموم، وذلك كالأشاعرة ونحوهم.

وأمَّا أهل السنة والجماعة؛ فإنهم يؤمنون بأنواع العلو الثلاثة: علو

الذات، وعلو العظمة والشأن، وعلو القهر والغلبة علىٰ الوجه اللائق بعظمته وكماله ذاتًا وأسماء وصفات.

وهو مع علوِّه بذاته وأسمائه وصفاته قريبٌ من خلقه بعلمه، فلا منافاة بين نصوص العلو والفوقية وبين نصوص القرب والمعية، فهو عالٍ بذاته وهو مع جميع مخلوقاته بعلمه وإحاطته، وهذه هي معيَّتُهُ العامة، ومع عباده الصالحين بمعيَّتِهِ الخاصة والعامة، الخاصة بالنصر والتأييد والتوفيق وهداية القلوب، والعامة بإحاطة علمه بهم بذواتهم وأعمالهم وأولهم وآخرهم وجميع تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم.

كلُّ ذلك معلوم لله ﷻ؛ لأنه لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لذا قال المؤلف: (**وهو دانٍ بعلمه من خَلقِهِ**)؛ أي: قريب، كما في قوله الحق: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. فقُربُ الله ﷻ بعلمه وإحاطته واطِّلاعهِ علىٰ جميع مخلوقاته في سمواته وأرضه.

وقوله: (**أحاطَ علمهُ بالأمور، وأنفذ في خلقهِ سابقَ المقدُور**)؛ أي: كل ما قدَّرهُ الله وقضاه في الأزل فلابد أن ينفُذَ كما قدَّره وقضاه، وفي الحديث: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُب مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**»[1]، فجرىٰ القلم في

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود في «السنن» برقم (٤٧٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» =

تلك الساعة بما هو كائنٌ إلىٰ قيام الساعة، وما جرىٰ به القلم في الأزل فإنه لابد أن ينفُذ لا يتغير منه شيء ولا يتقدم ولا يتأخر منه شيء، من كُفرٍ وإيمان وصحة وسقم وغنىٰ وفقر وحياة وموت، وكل حدث من الأحداث، وكل أمر من الأمور -أي: أمور الدنيا والبرزخ والآخرة- كل ذلك قد جرىٰ به القلم.

فلابد أن يقع كما قدره الله وقضاه في الأزل؛ لكمال علمه وإحاطته بالكون وما فيه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقول المؤلف: (وهو الجوادُ الغفور) اسمان من أسماء الله.

(الجواد)؛ أي: صاحب الجود علىٰ عباده والكرم والإحسان إليهم والفضل عليهم، كل ذلك من جود الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ خلقه، فاسمه الجواد وصفته الجود التي هي الكرم والإفضال والإحسان إلىٰ المخلوقات علىٰ اختلاف أنواعها وطبقاتها وأجناسها.

والغفور: اسم لله ﷻ دلَّ علىٰ إثبات صفة المغفرة صفة فِعلية تليق بعظمة الله وجلاله، فهو الغفور لعباده المذنبين، من استغفره صادقًا راغبًا وراهبًا غفر له، ومن تاب إليه كذلك قبِله، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

=

برقم (١٠٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢٠٨٧٥)، وغيرهم.

والحديث صحَّحه الألباني في تخريجه للطحاوية (٢٦٤) برقم (٢٧١).

وكما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]. إلىٰ غير ذلك من النصوص التي فيها إثبات صفة المغفرة لله -تبارك وتعالىٰ-، ومغفرته لمن يستحقها وهو أعلم بذلك، وقد أعلمنا بذلك في محكمات النصوص من الكتاب والسنة.

وأورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]. للاستدلال علىٰ إثبات إحاطة علم الله بجميع مخلوقاته ما ظهر منها وما بطن وما أسروه وما أعلنوه، ولحظات العيون وما تكنُّهُ الصدور ولو لم تنطق به الألسنة فإن الله ﷻ يعلمه، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]؛ أي: يعلم ما توسوس به النفوس ولو لم تنطق به الألسن وما ذلك إلا لكمال علمه سبحانه؛ إذ هو بكل شيء عليم وبكل شيء محيط.

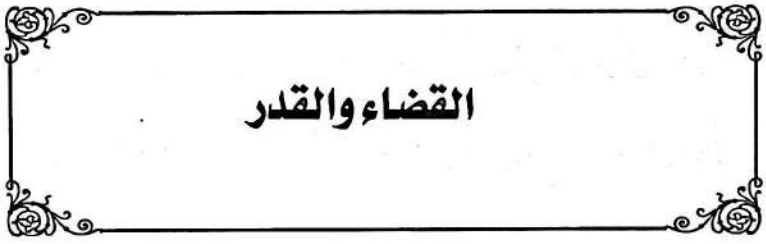

القضاء والقدر

فَالخَلقُ عَامِلُونَ بِسَابِقِ عِلمِهِ، وَنَافِذُونَ لِمَا خَلَقَهُم لَهُ مِن خَيرٍ وَشَرٍّ، لَا يَملِكُونَ لأنفُسِهِم مِنَ الطَّاعَةِ نَفعًا، وَلَا يَجِدُونَ إِلَىٰ صَرفِ المَعصِيَةِ عَنهَا دَفعًا.

الشرح:

قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (القضاء والقدر)؛ القضاء هو ما قضاه الله عَزَّوَجَلَّ، والقدر تقدير الله -تبارك وتعالىٰ- لجميع الأشياء قليلها وكثيرها وحقيرها وجليلها، كل ذلك صادرٌ عن علم الله -تبارك وتعالىٰ-، وواقع بقضائه وقدره، لذا قال المؤلف: (فالخَلق عاملُون بسابق عِلمه)؛ أي: إن العمل في شيء قد فُرغ منه؛ أي: قد قدَّره الله وقضاه.

فالخير والشر والقليل والكثير والطاعة والمعصية، وكلُّ ما يجري في هذه الحياة وبعد الممات؛ فهو بقضاء الله وقدره، وقد جرىٰ به القلم كما سبق في الحديث الماضي، فعمل العباد فيما قد جرىٰ به القلم لا يتجاوزونه من خير وشر، والناس في باب القضاء والقدر ثلاثة أقسام:

* **قسم غَلَوا في نفي القدر**، فنفوا تقدير الله -تبارك وتعالىٰ- للخير والشر، وقالوا: إن العبد هو الذي يخلق فِعل نفسه، وهم القدرية مجوس هذه الأمة، الذين جعلوا مع الله خالقين متعدِّدين؛ أي: كل مخلوق يخلق فعل نفسه من خير وشر، وهؤلاء عطَّلوا الله -تبارك وتعالىٰ- من صفات كماله، وجعلوا خلقه شركاء له في الخلق، فأشركوا في الربوبية، وانقسموا إلىٰ قسمين:

قسم منهم قالوا: إن العبد يخلق فعل نفسه خيرًا وشرًا.

وقسم قالوا: إن الله ﷻ يقدِّر الخير ولا يقدِّر الشر.

وكلتا الطائفتين علىٰ ضلال، فإن الله ﷻ خلق العاملين وأعمالهم خيرها وشرها، قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

والعباد عاملون ويُنسب إليهم عملهم خيره وشره فعلًا وكسبًا، ويترتب علىٰ ذلك الجزاء، فيجازىٰ المحسن في العمل بإحسانه، ويجازىٰ المسيء من جنس عمله، ولا يظلم ربك أحدًا، ولتكن علىٰ علم أن القدرية فرقة هالكة لفساد معتقدها ومنهجها.

* **والقسم الثاني من الناس**: الجبرية، وهي طائفة هالكة من طوائف أهل البدع والضلال، غلوا في إثبات الأفعال ونسبتها إلىٰ الله ﷻ وحده،

فقالوا: إن الفاعل في الحقيقة هو الله؛ أي: للخير والشر، ونسبة الأعمال إلىٰ العباد مجازٌ وليست حقيقة، والفاعل في الحقيقة عندهم هو الله.

فمن لازم قولهم أن العبد مجبور علىٰ فعل المعاصي، وإذا عذبه الله علىٰ معصيته عذبه ظلمًا، هذا من لازم قول الجبرية من الجهمية، فهم في مقابل القدرية، وهي طائفة ضالة؛ لأنهم نسبوا إلىٰ الله -تباركَ وتعالىٰ- ما لا يجوز لهم نسبته إليه من كونه هو الفاعل حقيقة والعباد ليسوا بفاعلين في الحقيقة، ونسبة الأفعال إليهم مجاز وليست حقيقة، فرفعوا اللوم عن كل عاصٍ وضربوا مثلًا للعامل بأنه كالشجرة التي تُميِّلُها الرياح يمنة ويسرة بدون اختيار، ومثَّلوا له بالهاوي؛ يعني: النازل من أعلىٰ إلىٰ أسفل لا قدرة له ولا اختيار.

وهكذا ضربوا الأمثال الباطلة فضلوا وأضلوا، والحقيقة أن من ضل وأضل حمل وزره ووزر من أضله، فنعوذ بالله من سوء الحال وشر المآل.

* **وتوسط أهل السنة والجماعة** بين الجبرية والقدرية، فأثبتوا لله -تبارك وتعالىٰ- القضاء والقدر، وأن كل شيء في الكون يقع فهو بقضاء الله وقدره؛ من خير وشر ومعصية وطاعة وكل حدث من الأحداث يقع فهو كذلك، فنسبة الخير والشر إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- نسبة خلق وإيجاد وتقدير؛ أي: أن الله هو الذي قدر ذلك، ولا ينسب الشر إلىٰ الله، بل كل ما فعله سبحانه فهو خير محض ليس فيه شر بوجه من الوجوه؛ لقول النبي ﷺ

في الدعاء المأثور: «**والشر ليس إليك**»[1]؛ أي: لا تجوز نسبة الشر إلىٰ الله، أي لا يأمر به، ولكنه هو خالقه كما خلق فاعله، وإنما هو شر بالنسبة لفاعله وعامله من المكلفين؛ لأنه يجازىٰ عليه بالعقوبات العاجلة والآجلة.

ونسبة الخير والشر إلىٰ الخلق نسبة عمل وكسب، فهم باختيارهم ومشيئتهم يعملون الصالحات والسيئات، ومشيئة العباد تابعة لمشيئة الله - تبارك وتعالىٰ-، كما قال -عز شأنه-: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

فللعبد مشيئة واختيار تابعان لمشيئة الله ﷻ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]؛ فإنه أنزل الكتب وأرسل الرسل وركَّب العقول وخلق القلوب والجوارح وأمر ونهىٰ، وكل مكلَّف قادر علىٰ امتثال الأمر واجتناب النهي وترك الأمر وارتكاب المنهي عنه، وفعل الطاعة وترك المعصية علىٰ العموم.

فمن فعل الخير فبفضل الله ورحمته فعل، ثم بكسبه وعمله، ومن فعل الشر فبعدل الله وحكمته فعل، وكذلك بفعله وكسبه، وعلىٰ ذلك يترتب الجزاء فيثاب المطيع ويستحق العاصي العقاب، والعصاة قسمان:

١- عصاة كفار كفرًا أكبر أو منافقون نفاقًا اعتقاديًّا، أو مشركون شركًا أكبر أو ملحدون إلحادًا يخرج من الملة، فهؤلاء عقوبتهم دائمًا وأبدًا

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرينَ وقصرِها، في باب: الدُّعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١).

لا خروج لهم من النار أبد الآبدين.

٢- **وعصاة دون ذلك من عصاة الموحدين تحت المشيئة الإلهية**، إن شاء الله عفا عنهم وغفر لهم فلم يدخلهم النار، وإن شاء عذبهم بقدر ما جنوا ومآلهم يقينًا إلىٰ الجنة كما دلَّت علىٰ ذلك نصوص الكتاب والسنة، ومنها قول النبي ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[(١)].

والله أذن للشافع أن يشفع، وأذن للمشفوع فيه أن يشفع فيه الشافعون، كما في حديث الشفاعة الطويل[(٢)]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٣٢٢٢)، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٧٣٩)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٤٣٥)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٣١٠).
والحديث صححه الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٥٩٨).

(٢) حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، برقم (٤٤٧٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

الملائكةُ

خَلَقَ الخَلقَ بِمَشِيئَتِهِ مِن غَيرِ حَاجَةٍ كَانَت بِهِ.

٤- وَخَلَقَ المَلَائِكَةَ جَمِيعًا لِطَاعَتِهِ، وَجَبَلَهُم عَلَىٰ عِبَادَتِهِ؛ فَمِنهُم مَلَائِكَةٌ بِقُدرَتِهِ لِلعَرشِ حَامِلُونَ، وَطَائِفَةٌ مِنهُم حَولَ عَرشِهِ يُسَبِّحُونَ، وَآخَرُونَ بِحَمدِهِ يُقَدِّسُونَ، وَاصطَفَىٰ مِنهُم رُسُلًا إِلَىٰ رُسُلِهِ، وَبَعضٌ مُدَبِّرونَ لأمرِهِ.

الشرح:

وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (خلق الخلق) بقدرته من غير حاجة به إليهم، وذلك دليل علىٰ كمال غنىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- عن جميع مخلوقاته، وإنما خلق الخلق لحكمة، خلق العوالم كلها لحكمة بالغة، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ومن جملة مخلوقاته العظام: ملائكته الكرام، كما جاء في الحديث: «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِن نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم»[1]؛ أي: من تراب.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: أحاديث متفرقة، برقم (٢٩٩٦).

فمن العوالم: الملائكة، وهم خلق من مخلوقات الله خلقهم وجبلهم علىٰ طاعته فلا سبيل لهم إلىٰ معصيته أبدًا؛ أي: لا يعصون الله أبدًا، كما زكَّاهم الله ﷻ في قوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وزكاهم في عبادتهم بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وقال النبي ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَن تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوضِعُ أَربَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»(١).

وهم خلق كثير لا يُحصي عددهم إلا خالقهم، كما قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة من جحده فقد كفر، وجعلهم الله علىٰ وظائف وأعمال:

* فمنهم: حملة العرش الذين قال الله في حقهم: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]. وقد أمدَّهم الله -تبارك وتعالىٰ- بعونه لهم وإقداره فحملوا عرشه.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٢١٥١٥)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٣١٢)، وابن ماجه في «السنن» برقم (٤١٩٠)، والحاكم في «المستدرك» برقم (٣٨٨٣)، وغيرهم.

وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٠٦) برقم (٨٥٢)، و(٣/ ٤٩) (١٠٦٠).

* ومنهم: المسبِّحون حول العرش الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] الآيات.

* ومنهم: علىٰ أعمال ذكرها الرب الرحيم والخلاق العليم في القرآن الكريم، وذكرها النبي الكريم ﷺ في السنة، وأشرفهم الأمين علىٰ الوحي: جبريل -عليه الصلاة والسلام- الذي ينزل بالوحي من السماء علىٰ الرسل والأنبياء في الأرض، كما قال الله ﷻ في شأن القرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وثبت أن النبي ﷺ قال لِجبريلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟

قَالَ: فَنَزَلَت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٤-٦٥][(١)].

والجواب: لا سمي له؛ أي: ليس له شيء من مخلوقاته يشبهه ويماثله.

* ومنهم: من هو موكَّل بالقطر والنبات وهو ميكائيل[(٢)]، فما تنزل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، برقم (٣٢١٨).

(٢) ثبت هذا في حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٢٤٨٣)، وابن أبي حاتم في

قطرة من السماء علىٰ الأرض إلا ويصرِّفها كما أراد الله -تبارك وتعالىٰ- وأمر، ولا تنبُتُ نبتةٌ كذلك إلا ويُصرِّفُها هذا الملك العظيم ميكائيل.

* ومنهم: الموكَّل بالنفخ في الصور[١] وهو إسرافيل[٢]، فقد خلق الله ﷻ الصور وهو: «قَرنٌ يُنفَخُ فِيهِ»[٣]، وأمر إسرافيل أن ينفخ فيه في الوقت

=

«التفسير» برقم (٩٥٢)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» برقم (٩٠٢٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٤٢٩)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٤٢): «رَوَاهُ أَحمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَرِجَالُهُمَا ثِقَاتٌ».

(١) ثبت أن الله وكَّل بالصور ملكًا، وذلك في عدَّة أحاديث منها: ما أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١١٠٣٩)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٤٣١)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (١١٠١٦).

والحديث في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٦٦) برقم (١٠٧٩).

(٢) ورد في عدَّة أحاديث أن الذي ينفخ في الصور هو إسرافيل، غير أن أسانيدها لا تخلو من مقال، وكون الذي ينفخ في الصور هو إسرافيل مما اشتهر عند أهل العلم بل نقل غير واحد الاتفاق علىٰ ذلك، قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٠): «وَالأُمَمُ مُجمِعَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَنفُخُ فِي الصُّورِ إِسرَافِيلُ عليه السلام».

وقال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٦٨): «اشتُهِرَ أَنَّ صَاحِبَ الصُّورِ إِسرَافِيلُ عليه السلام وَنَقَلَ فِيهِ الحَلِيمِيُّ الإِجمَاعَ»، ثم أورد عدة أحاديث وردت بالتصريح باسمه وضعَّفها.

وقال الشيخ عبد المحسن العباد -حفظه الله- في «شرح سنن أبي داود»: «وصاحب الصور المراد به الذي ينفخ في الصور، وقد اشتهر بأنه إسرافيل، ولا نعلم حديثًا صحيحًا يدل علىٰ تسميته بذلك ولكنه مشهور». والله أعلم.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٦٥٠٧)، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٧٤٢)،

=

المحدَّد له، فإذا جاء وقت النفخ في الصور نفخ إسرافيل ثلاثة نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعق وهو الموت، ونفخة القيام لرب العالمين؛ أي: نفخة البعث والنشور.

* ومنهم: الموكلون بسؤال الناس في الحياة البرزخية سواء كان ذلك في القبور أو في غير القبور، من انتهىٰ أجله وقبضت روحه؛ فإنه يسأل في قبره كما ثبت بذلك النص الصحيح(١)، وإن كان في غير القبور فلابد من السؤال لا فرق بين هذه الحال وتلك(٢)؛ فإن الله علىٰ كل شيء قدير، ولابد أن ينعم إن ألهم الحجة، أو يعذب إذا أساء الجواب؛ كما جاء ذلك صريحًا في حديث البراء بن عازب ﷺ(٣).

=

والترمذي في «الجامع» برقم (٢٤٣٠)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (١١٢٥٠)، وغيرهم.
والحديث صححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣/ ٦٨) (١٠٨٠).

(١) وهما ملكان كما صح في السنة، ومن الأحاديث التي دلت علىٰ ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر برقم (١٣٧٤)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عَرضِ مَقعَدِ المَيِّتِ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلَيهِ، وَإِثبَاتِ عَذَابِ القَبرِ وَالتَّعَوُّذِ مِنهُ، برقم (٢٨٧٠).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب الروح» (١/ ٢٩٩): «وَمِمَّا ينبغي أَن يعلم أَن عَذَاب القَبر هُوَ عَذَاب البرزخ، فَكل من مَاتَ وَهُوَ مُستَحقٌّ للعذاب ناله نصِيبه مِنهُ قُبر أَو لم يقبر، فَلَو أَكلته السبَاع، أَو أحرق حَتَّىٰ صَار رَمَادًا ونُسف فِي الهَوَاء، أَو صلب أَو غرق فِي البَحر وصل إِلَىٰ روحه وبدنه من العَذَاب مَا يصل إِلَىٰ القُبُور».

(٣) حديث البراء بن عازب الطويل: أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٨٦١٤)، وأبو داود =

* ومنهم: الكرام الكاتبون الحفظة، مع كلِّ مكلَّف، يحصون أعمال العباد عليهم[١]، يستنسخونها من اللوح المحفوظ فلا تختلف عمَّا كُتب في اللوح المحفوظ أبدًا، بل ما عملوه يأتي موافقًا لما كُتِب في اللوح المحفوظ، ولذا قال الله ﷻ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].

والاستنساخ: النقل من الأصل الذي هو اللوح المحفوظ، والإمام المبين الذي قال الله عنه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]؛ أي: اللوح المحفوظ.

* ومنهم: الموكَّل بالجنة وهم خزنة الجنة[٢]، وعلىٰ رأسهم رضوان

=

في «السنن» برقم (٤٧٥٣)، وأبو داود الطيالسي في «المسند» برقم (٧٨٩)، والآجري في «الشريعة» برقم (٨٦٤)، والحاكم في «المستدرك» برقم (١٠٧)، وأخرجه مختصرًا النسائي في «السنن» برقم (٢٠٠١)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٥٤٩)، والحديث صححه الألباني في «أحكام الجنائز» (١٥٩).

(١) قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].
وقال سبحانه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨].

(٢) ثبت أن للجنة خازنًا أو خزنة في عدة أحاديث، منها: ما ثبت في حديث الشفاعة أن النبي ﷺ قال: «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يومَ القِيَامَةِ فَأَستفتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَن أَنتَ؟
فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ.
فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرتُ لَا أَفتَحُ لِأَحَدٍ قَبلَكَ». أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، بَابٌ فِي قَولِ
=

الذي جاء ذِكرهُ في الحديث، خازِنُ الجنة[1].

* ومنهم خزنة النار، وعلىٰ رأسهم مالك الذي جاء ذكرهُ في القرآن في

=

النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشفَعُ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَا أَكثَرُ الأَنبِيَاءِ تَبَعًا». برقم (١٩٧).

وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا: «مَن أَنفَقَ زَوجَينِ فِي سَبِيلِ اللهِ، دَعَاهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ، كُلُّ خَزَنَةِ بَابٍ: أَي فُلُ، هَلُمَّ». أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فَضلِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، برقم (٢٨٤١)، ومسلم في: كتاب الزكاة، بَابُ: مَن جَمَعَ الصَّدَقَةَ، وَأَعمَالَ البِرِّ، برقم (١٠٢٧).

(١) اشتهرت تسمية خازن الجنة بـ(رضوان) ونص علىٰ ذلك غير واحد من العلماء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «حادي الأرواح» (١٠٩): «قد سمىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كبير هذه الخزنة رضوان وهو اسم مشتق من الرضا».

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٥٠): «وَخَازِنُ الجَنَّةِ مَلَكٌ يُقَالُ لَهُ: رِضوَانُ، جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي بَعضِ الأَحَادِيثِ».

والأمر كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فقد ورد مصرحًا باسم خازن الجنة في بعض الأحاديث لكن في جميعها نظر، بل هي إما موضوعة وإما ضعيفة ضعفًا شديدًا.

وقد سئل عن هذه التسمية الشيخ ابن عثيمين فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما (رضوان): فموكل بالجنة واسمه هذا ليس ثابتًا ثبوتًا واضحًا كثبوت مالك؛ لكنه مشهور عند أهل العلم بهذا الاسم، والله أعلم». «مجموع فتاوىٰ ورسائل ابن عثيمين» (٣/ ١٦١).

كما سُئلت اللجنة الدائمة عن هذا فأجابت: «المشهور عند العلماء: أن اسم خازن الجنة رضوان، وجاء ذكره في بعض الأحاديث التي في ثبوتها نظر. والله أعلم». «فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (٢/ ٣٥٣).

وانظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٠/ ١٩٧) (٤٦٣٦)، و«ضعيف الترغيب والترهيب» (٥٩٤).

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧][1].

* ومنهم: ملائكة سيَّاحُون في الأرض يتتبَّعون مجالس الذِّكر[2]، والذِّكر لفظ عام يتناولُ قراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ويتناول الفقه في دين الله -تبارك وتعالىٰ-، وعلىٰ رأس علوم الفقه: الفقه الأكبر؛ وهو معرفة الله بذاته وأسمائه وصفاته، وما يجب له وما يمتنع عليه، فمن حقَّق التوحيد فقد حقَّق الفقه الأكبر، ولا يكون تحقيق التوحيد إلا بفهم معنىٰ نصوصه من الكتاب والسنة وفهم ما يضادُّه، وتطبيق ذلك تطبيقًا عمليًّا.

وقد قال محمد بن عبد الوهاب -رحمة الله عليه-: «باب من حقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب».

وقد جاء بهذا حديث في الصحيحين[3] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجلِسًا فِيهِ ذِكرٌ قَعَدُوا مَعَهُم، وَحَفَّ بَعضُهُم بَعضًا بِأَجنِحَتِهِم،**

---

(١) وصح ذكره في السنة أيضًا في عدة أحاديث، منها قول النَّبِيِّ ﷺ: «رَأَيتُ اللَّيلَةَ رَجُلَينِ أَتَيَانِي قَالَا: الَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَأَنَا جِبرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ». أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: (إِذَا قَالَ أَحَدُكُم: آمِينَ وَالمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ، آمِينَ فَوَافَقَت إِحدَاهُمَا الأُخرَىٰ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ)، برقم (٣٢٣٦).

(٢) الحديث الذي يدل علىٰ هذا سيأتي ذكره قريبًا.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فَضلِ ذِكرِ اللهِ ﷻ، برقم (٦٤٠٨)، ومسلم في: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَابُ: فَضلِ مَجَالِسِ الذِّكرِ، برقم (٢٦٨٩).

حَتَّىٰ يَملَئُوا مَا بَينَهُم وَبَينَ السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ.

قَالَ: فَيَسأَلُهُمُ اللهُ ﷻ، وَهُوَ أَعلَمُ بِهِم: مِن أَينَ جِئتُم؟

فَيَقُولُونَ: جِئنَا مِن عِندِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحمَدُونَكَ وَيَسأَلُونَكَ.

قَالَ: وَمَاذَا يَسأَلُونِي؟

قَالُوا: يَسأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَل رَأَوا جَنَّتِي؟

قَالُوا: لَا، أَي رَبِّ.

قَالَ: فَكَيفَ لَو رَأَوا جَنَّتِي؟

قَالُوا: وَيَستَجِيرُونَكَ.

قَالَ: وَمِمَّ يَستَجِيرُونَنِي؟

قَالُوا: مِن نَارِكَ يَا رَبِّ.

قَالَ: وَهَل رَأَوا نَارِي؟

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَكَيفَ لَو رَأَوا نَارِي؟

قَالُوا: وَيَستَغفِرُونَكَ.

قَالَ: فَيَقُولُ: قَد غَفَرتُ لَهُم فَأَعطَيتُهُم مَا سَأَلُوا، وَأَجَرتُهُم مِمَّا استَجَارُوا.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِم فُلَانٌ عَبدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُم.

قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرتُ هُمُ القَومُ لَا يَشقَىٰ بِهِم جَلِيسُهُم».

آدم عليه السلام

٥- ثُمَّ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَأسكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَقَبلَ ذَلِكَ لِلأرضِ خَلَقَهُ، وَنَهَاهُ عَنِ شَجَرَةٍ قَد نَفَذَ قَضَاؤُهُ عَلَيهِ بِأكلِهَا، ثُمَّ ابتَلَاهُ بِمَا نَهَاهُ عَنهُ مِنهَا، ثُمَّ سَلَّطَ عَلَيهِ عَدُوَّهُ فَأغوَاهُ عَلَيهَا، وَجَعَلَ أَكلَهُ لَهَا إِلَىٰ الأرضِ سَبَبًا، فَمَا وَجَدَ إِلَىٰ تَركِ أكلِهَا سَبِيلًا، وَلَا عَنهُ لَهَا مَذهَبًا.

الشرح:

هذا بيان لخلق الله ﷻ لآدم وما ابتلاه به وما جعل له من المخرج وهو التوبة، والله ﷻ خلق آدم بيده، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون:١٢].

والمراد بالإنسان هنا: آدم ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ هذا أصل بني آدم، فآدم خُلِق من تراب ثم خَلَق الله -تبارك وتعالىٰ- من ضلعه زوجته حواء، فتغشَّاها كما أخبر الله ﷻ فحملت فجاء النسل وتتابعت الذرية وتكاثرت، فأما آدم لما خلقه الله أسكنه جنته وهل هي جنة في الأرض أو جنة الخلد؟ خلاف بين العلماء[1].

(١) هذه المسألة من المسائل التي وقع فيها خلاف بين أهل العلم: فمنهم من قال: هي جنة =

والصحيح ما رجحه أهل العلم أنها جنة الخلد[1]، وبوأه منها حيث شاء إلا شجرة واحدة نهاه الله أن يأكل منها.

فدخل عليه العدو كما يشاء الله وزيَّن له الأكل من تلك الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها هو وزوجه؛ فصارت سببًا في عقوبتهما وإهباطهما من الجنة إلىٰ الأرض، كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ

=

الخلد التي في السماء، وأُهبط منها آدم عليه السلام.

ومنهم من قال: هي جنة في الأرض.

ومنهم من توقف في هذه المسألة، فلم يرجح أحد القولين علىٰ الآخر، وممن اعتنىٰ بذكر الخلاف في هذه المسألة وبسط الأقوال فيها: ابن القيم رحمه الله في كتاب «حادي الأرواح» (٢٢) وما بعدها، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١١) وما بعدها، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٧٥) وما بعدها.

(١) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٧٥): «وَالجُمهُورُ عَلَىٰ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي فِي السَّمَاءِ، وَهِيَ جَنَّةُ المَأوَىٰ لِظَاهِرِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ».

ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول في «مجموع الفتاوىٰ» ودافع عنه بقوة حيث قال رحمه الله (٤/ ٣٤٧): «وَالجَنَّةُ الَّتِي أَسكَنَهَا آدَمَ وَزَوجَتَهُ عِندَ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: هِيَ جَنَّةُ الخُلدِ، وَمَن قَالَ: إِنَّهَا جَنَّةٌ فِي الأَرضِ بِأَرضِ الهِندِ أَو بِأَرضِ جُدَّةَ أَو غَيرِ ذَلِكَ فَهُوَ مِن المُتَفَلسِفَةِ وَالمُلحِدِينَ أَو مِن إِخوَانِهِم المُتَكَلِّمِينَ المُبتَدِعِينَ؛ فَإِنَّ هَذَا يَقُولُهُ مَن يَقُولُهُ مِن المُتَفَلسِفَةِ وَالمُعتَزِلَةِ.

وَالكِتَابُ وَالسُّنَّةُ يَرُدَّانِ هَذَا القَولَ، وَسَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ بُطلَانِ هَذَا القَولِ».

إلا أنه في كتاب «النبوات» (٢/ ٧٠٥-٧٠٧): جعل للسلف قولين في المسألة، وصحح أنَّ جنَّة آدم كانت جنَّة التكليف، ولم تكن في السماء، والله أعلم.

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] الآيات.

فدخوله الجنة وأكله من الشجرة كلُّ ذلك قد قدَّره الله وقضاه وكتب عليه ذلك قبل أن يخلقه بأربعين سنة كما جاء في حديث المُحاجَّة بين موسىٰ وآدم[١]، فصارت ذرية آدم في الأرض لعمارتها، ويجري فيهم قدر الله -تبارك وتعالىٰ-، منهم أهل الإيمان ومنهم أهل الكفر والطغيان ومنهم أهل الطاعة ومنهم أهل المعصية ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

وكل ذلك جرىٰ به القلم الذي خلقه الله -تبارك وتعالىٰ- «**وقال له: اكتب، قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيء إلىٰ أن تقوم الساعة، فجرىٰ القلم بما هو كائن إلىٰ أن تقوم الساعة**»[٢].

(١) أخرجه البخاري في كتاب: القدر، باب: تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ عِندَ اللهِ، برقم (٦٦١٤)، ومسلم في: كتاب القدر، بَابُ: حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَىٰ عليهما السلام، برقم (٢٦٥٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٢).

أعمالُ أهلِ الجنَّة والنَّار

٦- ثُمَّ خَلَقَ لِلجَنَّةِ مِن ذُرِّيَّتِهِ أهلًا؛ فَهُم بِأعمَالِهَا بِمَشِيئَتِهِ عَامِلُونَ، وَبِقُدرَتِهِ وَبِإِرَادَتِهِ يَنفُذُونَ.

وَخَلَقَ مِن ذُرِّيَّتِهِ لِلنَّارِ أهلًا، فَخَلَقَ لَهُم أَعيُنًا لَا يُبصِرُونَ بِهَا، وَآذَانًا لَا يَسمَعُونَ بِهَا، وَقُلُوبًا لَا يَفقَهُونَ بِهَا، فَهُم بِذَلِكَ عَنِ الهُدَىٰ مَحجُوبُونَ، وَبِأعمَالِ أهلِ النَّارِ بِسَابِقِ قَدَرِهِ يَعمَلُونَ.

الشرح:

قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الجنة والنار)؛ أي: إن عقيدة أهل السنة والجماعة السلف الصالح وأتباعهم يؤمنون بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان، خلق الله الجنة وخلق لها أهلًا، وخلق النار وخلق لها أهلًا، وهما موجودتان الآن، وقد سبقَ بذلك القلم في اللوح المحفوظ وبأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم، وكذلك بأسماء أهلِ النَّار وأسماء آبائهم وقبائلهم فلا يُزاد فيهم ولا ينقص منهم.

كل ذلك قد جرىٰ به القلم وسبق به القدر، لذا قال المؤلف هنا: (ثمَّ

خلقَ للجنَّة من ذرِّيَّته)؛ أي: من ذرية آدم عليه السلام، (أهلًا) كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ -تبارك وتعالىٰ- خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاستَخرَجَ مِنهُ ذُرِّيَّةً.

فَقَالَ: خَلَقتُ هَؤُلَاءِ لِلجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ يَعمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهرَهُ فَاستَخرَجَ مِنهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ يَعمَلُونَ»[1].

فأهل الجنة يُختَم لهم بعمل أهل الجنة وأهل النار يُختَم لهم بعمل أهل النار، وكل ذلك لا يخرج عن القدر المقدور الذي سبق في علم الله -تبارك وتعالىٰ- قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكما خلق ذريةً من ظهر آدم للجنة خلق كذلك ذرية من ظهره للنار، فهم بأعمال النار يعملون، وهم كما وصفهم الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

لذا وصفهم المؤلف بما وصفهم الله عز وجل به في القرآن، حيث قال: (فَخَلَقَ لهم أعينًا لا يبصرُون بها، وآذانًا لا يسمعُون بها، وقلوبًا لا يفقهون بها، فهُم بذلك عن الهُدىٰ) الذي جاء به نبي الهدىٰ (محجُوبون) لا يبصرونه

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» برقم (٣٣٣٧)، ومن طريقه أحمد في «المسند» برقم (٣٠٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» برقم (١٩٦)، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٧٠٣)، والترمذي في «الجامع» برقم (٣٠٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» برقم (١١١٢٦).
والحديث صحح معناه ابن تيمية في «المجموع» (٨/ ٦٥)، ومال الألباني في آخر قوليه إلىٰ أنه صحيح لغيره. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤/ ١٥٩) (١٦٢٣).

ولا يفقهونه ولا يعملون به.

(وبأعمال أهل النَّار بسابق قَدَره يعملُون)؛ أي: قد جرىٰ القلم بأنهم من أهل النار وبعمل أهل النار يعملون، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للفرق المبتدعة كالقدرية الذين نفوا تقدير الله -تبارك وتعالىٰ- للخير والشر، والجبرية الذين غلوا في إثبات أفعال الرب فنسبوا كل شيء إلىٰ الله ﷻ ورفعوا اللوم عن العاصي لأنه مجبور علىٰ فعل المعصية في زعمهم ومن ثَمَّ يُعذَّب عليها، وهَدىٰ الله أهل السنة والجماعة فآمنوا بالقدر خيره وشره، وأنه من الله -تبارك وتعالىٰ-، وأن المخلوقات لا تخرج عمَّا قُدِّرَ لها أبدًا.

فالمطيع أطاع الله بفضل الله ورحمته ثم بسعيه وكسبه، والعاصي عصىٰ الله بعدل الله وحكمته ثم بكسبه، والجزاء علىٰ هذا الأساس؛ يثاب المطيع ويعاقب العاصي كما يشاء الله ويريد، كما هو صريح نصوص الكتاب والسنة.

الإيمـانُ

٧- وَالإيمَانُ قَولٌ وَعَمَلٌ، وَهُمَا سِيَّانِ، وَنِظَامَانِ، وَقَرِينَانِ، لَا نُفَرِّقُ بَينَهُمَا، لَا إيمَانَ إلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا عَمَلَ إلَّا بِإيمَانٍ.

وَالمُؤمِنُونَ فِي الإيمَانِ يَتَفَاضَلُونَ، وَبِصَالِحِ الأعمَالِ هُم مُتَزَايِدُونَ، وَلَا يَخرُجُونَ بِالذُّنُوبِ مِنَ الإيمَانِ، وَلَا يُكفَّرونَ بِرُكُوبِ كَبِيرَةٍ وَلَا عِصيَان، وَلَا نُوجِبُ لِمُحسِنِهِم الجِنَانَ بَعدَ مَن أوجَبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا نَشهَدُ عَلَىٰ مُسِيئِهِم بِالنَّارِ.

الشرح:

هذا بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة في حقيقة الإيمان، فالناس في الإيمان أقسام:

* **أهل السنة والجماعة** عرَّفوا الإيمان في اللغة بأنه التصديق الذي لا ريب فيه ولا شك يعتريه.

وفي الاصطلاح الشرعي: الإيمان قول وعمل واعتقاد، فهو قول باللسان؛ أي: نطقٌ باللسان كالنطق بالشهادتين وما والاهما من كل كلمٍ طيِّب، واعتقاد

بالجنان؛ أي: بالقلب بحيث ما قاله الإنسان بلسانه يعتقده بقلبه، وعمل بالجوارح كالتكاليف الشرعية التي يزاولها العاملون بجوارحهم، من صلاة وصوم وحج واعتمار وطلبٍ للعلم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر إلىٰ ما لا يحصىٰ من الأعمال الصالحة، يزيدُ بالطاعات وينقص بالمعاصي، فلابد أن تتفق وتجتمع هذه القيود في حقيقة الإيمان.

وقوله: (**وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وهما سيَّان ونظامان وقرينان، لا نفرِّقُ بينهما**)؛ أي: لا يُفرَّق بين الاعتقاد والعمل، فلا إيمان إلا بعمل، لا يفرق بين الإيمان بمعناه المتقدم وبين العمل الذي هو الإسلام، إذ لا إيمان إلا بعمل؛ أي: لا إيمان إلا بإسلام، ولا عمل إلا بإيمان؛ أي: لا إسلام إلا بإيمان، فلابد من اجتماعهما؛ أي: الإسلام والإيمان، لابد أن يجتمعا؛ أي: الأعمال بالجوارح والتصديق بالقلب.

وأما أهل الضلال والبدع فإنهم عرَّفوا الإيمان بتعريفات خاطئة.

* فقد عرَّفته **الفرقة الهالكة مرجئة الجهمية** بأنه المعرفة بالقلب، فعلىٰ تعريفهم هذا أن من عرف ربه ولو لم يعمل شيئًا فهو من أهل الإيمان الكاملين في إيمانهم، فيدخل في ذلك إبليس.

* وعرَّفته **مرجئة الكرَّامية** بأنه القول؛ أي: النطق باللسان فقط وهذا ضلال مبين كضلال مرجئة الجهمية.

* وعرَّف **الأشاعرة** الإيمان بأنه قول واعتقاد واختزلوا منه العمل

فأخرجوه عن مسمىٰ الإيمان، وهذا مخالفة ظاهرة لأهل السنة والجماعة.

وهدىٰ الله أهل السنة والجماعة فعرَّفوه بالتعريف الشرعي فقالوا: الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وهذا التعريف هو الذي تشهد له أدلة الكتاب والسنة، والحمد لله.

ثم بيَّن المؤلف بأن المؤمنين يتفاضلون بحسب أعمالهم فقال: **(والمؤمنون في الإيمان يتفاضلُون).**

فهذا كامل الإيمان، وهذا ناقص الإيمان، وهم درجات وطبقات متفاوتة، ولذا ثبت بأن المؤمنين في الجنة يقتسمون المنازل بأعمالهم[1]،

---

(١) لقد صح في السنة أن تفاوت أهل الجنة في النعيم راجع لتفاوتهم في الأعمال، فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَونَ أَهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهِم، كَمَا يَتَرَاءَونَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشرِقِ أَوِ المَغرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَينَهُم.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلكَ مَنَازِلُ الأَنبِيَاءِ لاَ يَبلُغُهَا غَيرُهُم!

قَالَ: بَلَىٰ وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرسَلِينَ». أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخلُوقَةٌ، برقم (٣٢٥٦)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب تَرَائِي أَهلِ الجَنَّةِ أَهلَ الغُرَفِ، كَمَا يُرَىٰ الكَوكَبُ فِي السَّمَاءِ، برقم (٢٨٣١).

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ: اقرَأ، وَارتَقِ، وَرَتِّل كَمَا كُنتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنيَا، فَإِنَّ مَنزِلَكَ عِندَ آخِرِ آيَةٍ تَقرَؤُهَا». أخرجه أحمد =

يدخلون الجنة بمحض فضل الله ورحمته ويقتسمون منازلها بأعمالهم، فهم متفاضلون في الإيمان، وعلىٰ هذا التفاضل يتفاضلون في الدرجات في الجنة.

وهكذا يتفاضلون في صالح الأعمال، ولذا قال المؤلف: **(وبصالح الأعمال هم متزايدُون)**؛ أي: زاد بعضهم علىٰ بعض في الأعمال الصالحات، كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من صالح الأعمال، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة.

كما أن من معتقدهم أنهم لا يخرجون بالذنوب من الإيمان أحدًا، والمراد بالذنوب التي لا يخرجون بها أحدًا من الإسلام والإيمان ما كان دون الشرك الأكبر والكفر الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من الملة.

(ولا يكفِّرُون بركوب كبيرة ولا عصيان)؛ أي: إن أهل السنة لا يكفِّرون بارتكاب الكبيرة كالزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس ونحو ذلك، ولا بارتكاب المعصية أيَّ معصية كانت، كما هو معتقد الخوارج والمعتزلة.

فالمعتزلة يحكمون علىٰ صاحب الكبيرة بأنه في منزلة بين المنزلتين لا هو مشرك كافر ولا هو مسلم، وفي الآخرة هو كافر عندهم ومخلَّد في نار

=

في «المسند» برقم (٦٨٠٠)، وأبو داود في «السنن» برقم(١٤٦٤)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٩١٤).

والحديث صححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥/ ٢٨١) (٢٢٥٣).

جهنم.

وأما الخوارج فإنهم يحكمون علىٰ مرتكب الكبيرة بالكفر الصريح والخلود في النار في الدار الآخرة.

فيتفق المعتزلة والخوارج في الحكم علىٰ العصاة من مرتكبي الكبائر من أهل التوحيد في الحكم عليهم بالخلود في النار، بحجة أن كل من دخل النار فلا يخرج منها أبدًا، فهم لا يؤمنون بالشفاعة في عصاة الموحدين، لا بشفاعة الملائكة ولا بشفاعة الرسل ولا بشفاعة المؤمنين ولا بإخراج رب العالمين قومًا من النار لم يعملوا خيرًا قط يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة، لا يؤمنون بذلك كله، بخلاف أهل السنة والجماعة فإنهم يؤمنون بذلك كله ولا يكفِّرون بارتكاب الكبيرة دون الشرك، ومن مات مصرًّا علىٰ كبيرة فهو تحت المشيئة الإلهية، ومن تاب قبل موته من الكبيرة فإن الله ﷻ يغفر ذنبه ويبدِّل سيئاته حسنات.

ولا يحكمون؛ أي: أهل السنة بجنة ولا نار لفرد من الأفراد، لا يحكمون للمؤمن بالجنة إلا من حكم له النبي ﷺ وشهد له بها، ولا يحكمون علىٰ مسيء بالنار، وإنما يرجون للمحسن ويخافون علىٰ المسيء، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة رحمهم الله، والله أعلم.

القــرآن

٨- وَالقُرآنُ كَلَامُ اللهِ ﷻ ، وَمِن لَدُنهُ، وَلَيسَ بِمَخلُوقٍ فَيَبِيدُ.

الشرح:

قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (والقرآن كلامُ الله ﷻ ، ومن لدُنهُ وليس بمخلوقٍ فيبيد)، هذا بيان لمعتقد أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

فالقرآن كلام الله تكلَّمَ به قولًا وأنزله علىٰ عبده ورسوله محمدٍ ﷺ وحيًا، إذ تلقاه جبريل عن ربِّ العالمين، وبلَّغهُ إلىٰ محمَّد النبي ﷺ الأمين، وبلَّغه النبي ﷺ أمته، ففي أي مكان يُتلىٰ وبأي شيء كُتب وفي أي شيء أودع فهو كلام الله ﷻ منزَّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود؛ أي: من الله ﷻ بدأ أي تكلم به قولًا، وإليه يعود كما صحَّت بذلك الآثار أنه يأتي علىٰ القرآن وقت يُسرىٰ به من المصاحف في آخر الزمان، وأما الطوائف الهالكة فهم ضلُّوا في كلام الله وفي القرآن، كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة ومن لفَّ لفهم خالفوا أهل السنة والجماعة.

فالجهمية والمعتزلة لا يثبتون شيئًا من صفات الله، والقرآن من كلام الله،

وكلام الله صفته، صفة ذات باعتبار اتصاف الله به، وكونه أزليًّا بأزليته، وصفة فعل باعتبار تنزله بمشيئة الله واختياره، وأما الطوائف المبتدعة الضالة كالجهمية والمعتزلة فإنهم لم يثبتوا لله صفة، ومن جملة الصفات التي جحدوها صفة الكلام الذي منه القرآن الكريم، واعتبروا القرآن مخلوقًا من جملة المخلوقات، وهو معتَقَدٌ فاسد وقول باطل.

فقد أجمع أهل السنة قاطبة أن القرآن منزَّلٌ من عند الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأدلتهم الكتاب والسنة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]. وهي أدلة صريحة علىٰ أن القرآن مُنزَّل من عند الله، ولم يكن مخلوقًا كسائر المخلوقات كما قالت الجهمية المعطلة والمعتزلة، وأمَّا الأشاعرة الماتُريدية والكلَّابية فهؤلاء أوَّلوا تأويلًا باطلًا، وعرَّفوا كلام الله ﷻ بما لا يجوز لهم قوله، فقالوا: كلام الله -تبارك وتعالىٰ- معنىٰ متعلق بذات الله لا حرف ولا صوت، وقالوا: إن الله منزهٌ عن الحرف والصوت.

وهذا دليل علىٰ جهلهم بمنهج أهل الحق الذين استدلُّوا بأدلة الكتاب والسنة علىٰ قولهم الحق بأن القرآن كلام الله، وأن كلام الله صفة من صفاته يليق بعظمة الله وجلاله ليس كصفات المخلوقين، فقولهم: إنه معنىٰ متعلق

بذات الله لا لفظ ولا حرف ولا صوت؛ قول باطل ومعتقد فاسد، بل القول الحق قول أهل السنة بأن القرآن كلام الله؛ ألفاظه وحروفه ومعانيه، فليس كلامه المعاني دون الحروف، ولا الحروف دون المعاني.

الصِّفـاتُ

٩- وَكَلِمَاتُ اللهِ، وَقُدرَةُ اللهِ، وَنَعتُهُ وَصِفَاتُهُ، كَامِلَاتٌ غَيرُ مَخلُوقَاتٍ، دَائِمَاتٌ أَزَلِيَّاتٌ، وَلَيسَت بِمُحدَثَاتٍ فَتَبِيدُ، وَلَا كَانَ رَبُّنَا نَاقِصًا فَيَزِيدُ.

جَلَّت صِفَاتُهُ عَن شَبَهِ صِفَاتِ المَخلُوقِينَ، وَقَصُرَت عَنهُ فِطَنُ الوَاصِفِينَ، قَرِيبٌ بِالإِجَابَةِ عِندَ السُّؤَالِ، بَعِيدٌ بِالتَّعَزُّزِ لَا يُنَالُ، عَالٍ عَلَىٰ عَرشِهِ، بَائِنٌ مِن خَلقِهِ، مَوجُودٌ وَلَيسَ بِمَعدُومٍ وَلَا بِمَفقُودٍ.

الشرح:

قوله: (كلماتُ الله وقدرةُ الله، ونعتهُ وصفاتُه، كاملاتٌ غيرُ مخلُوقاتٍ) هذا مذهب أهل السنة والجماعة، كلمات الله صفاته؛ كالقرآن وغيره، وقدرة الله صفة ذاتية لله -تبارك وتعالىٰ-، ونعته بأسمائه وصفاته اللائقة بعظمته وجلاله حق وصدق لا يجوز فيها التشبيه ولا التمثيل ولا التحريف ولا التعطيل ولا التأويل، وصفاته كاملات؛ أي: أن القول في صفات الله ﷻ كالقول في ذاته، فذاتُ الله ذات كمال لا تشبه ذوات المخلوقين ولا تماثلها ذوات المخلوقين.

وهكذا صفات الباري صفات كمال ليست كصفات خلقه، وإنما الاشتراك في أصل المعنىٰ واللفظ فقط، فقد يشترك لفظ الصفة صفة الخالق والمخلوق، ولكن صفة المخلوق تليق بحاله، وصفة الخالق تليق بجلاله، كالسمع والبصر مثلًا، سمىٰ الله نفسه سميعًا بصيرًا، ومن صفاته السمع والبصر، وسَمَّىٰ المخلوق سميعًا بصيرًا في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

فالاشتراك إنما هو في اللفظ وأصل المعنىٰ، وأما في الحقيقة والكيف فصفات الباري تليق بعظمته وجلاله وصفات المخلوق تليق بحاله، ولا يجوز أن يقال إنها من جملة المخلوقات كما قالت الجهمية والمعتزلة أن كلام الله مخلوق.

وقول المؤلف: (دائماتٌ أوليَّاتٌ)؛ أي: دائمات باقيات ببقاء الله ﷻ، أزليَّات بأزليَّته لأنها صفاته، فهو يوصف بالصفات الذاتية والصفات الفعلية أزلًا وأبدًا، أما الصفات الذاتية فلا تنفك عن الله أبدًا، وأما الصفات الفعلية كالاستواء والمجيء والسخط والفرح ونحو ذلك، فهي صفاته بمشيئته واختياره، متىٰ شاء اتصف بها ومتىٰ شاء لم يتصف بها مع الاعتقاد أنها صفات كمال، وكل صفة فعل فهي صفة ذات.

وقوله: **(وليست بمحدثات)**؛ أي: ليست بمخلوقات، يعني وصف الله بها البشر ربهم بعد أن لم يكن موصوفًا بها ليس لهم ذلك، وإنما الله -تبارك وتعالىٰ- بذاته وأسمائه وصفاته لهُ الكمال المطلق كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]. فلا تبيد صفاته؛ أي:

لا تفنىٰ ولا تنتهي.

وقوله: (**ولا كان ربُّنا ناقصًا**) حتىٰ وصفه العباد بهذه الصفات، بل هو صاحب الكمال المطلق ذاتًا وأسماءً وصفات، فلم يكن مجرَّدًا عن الصفات حتىٰ وُصف بها وإنما هو موصوفٌ بصفاته أزلًا وأبدًا.

وفي قوله: (**جلَّت صفاتُه عن شِبهِ صفات المخلوقين**)؛ أي: أن الله ﷻ ليس له شبيه من خلقه، لا يُشبه شيئًا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه، لأن له الكمال في الذات والأسماء والصفات، ولمخلوقاته النقص في ذواتهم وصفاتهم، فلا يستطيع أحد أن يصف كيفية ذات الله وكيفية صفاته إلا هو، لا يمكن لواصف أن يصف ذات الله ﷻ أو صفاته، لأنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله وحده، فأهل السنة والجماعة يفوِّضون في كيفية ذات الله وأسمائه وصفاته ولا يفوِّضون في المعاني لوضوحها عندهم.

وقوله: (**قريبٌ بالإجابة عند السُّؤال**)؛ أي: أن الله قريبٌ من عباده بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره كما قال -عز شأنه- في وصفه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وقال النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اربَعُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُم، إِنَّكُم لَيسَ تَدعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُم تَدعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُم**»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غَزوَةِ خَيبَرَ، برقم (٤٢٠٢)، ومسلم في

إذن؛ فالله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

وهو العزيز؛ أي: رفيع المقام، له العزَّة وله المكان العالي، لهذا قال المؤلف: (بعيدٌ بالتعزُّز لا يُنال)؛ أي: لا يُنال جنابه؛ فهو العزيز الذي قهر كل شيءٍ عزَّة وحكمًا.

وقوله: (عالٍ علىٰ عرشِه، بائنٌ من خلقِهِ)؛ أي: قد استوىٰ علىٰ عرشه الذي جعله سقف جميع مخلوقاته، واستوىٰ عليه استواء يليق بعظمته وجلاله، فله علو الذات وعلو الشأن وعلو القهر، موجود كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فهو الحيُّ وهو القائم بنفسه والمقيم لغيره، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢].

وأخبر بأنه يحيي ويميت، وأنه أوجد الخلائق من العدم، إذن فهو موجود وليس بمعدوم ولا بمفقود كما تدَّعي الملاحدة، الذين ينكرون وجود الله ﷻ ويؤمنون بالطبيعة، فمعتقدهم لا إله والحياة مادة، وقالوا: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وهو إنكار لله -تبارك وتعالىٰ-، والله أعلم.

=

كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر والدعاء، برقم (٢٧٠٤).

الآجـال

١٠- وَالخَلقُ مَيِّتُونَ بِآجَالِهِم، عِندَ نَفَادِ أرزَاقِهِم، وَانقِطَاعِ آثَارِهِم.

الشرح:

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والخَلقُ ميتُون بآجالهم عند نفادِ أرزاقهم وانقطاع آثارهم).

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤].

وكل مخلوق خلقه الله -تبارك وتعالىٰ- في عالم السماء وعالم الأرض له أجل ينتهي إليه ثم يموت إلا ما استثناه الله -تبارك وتعالىٰ- من الحور العين ونحوهن، والملائكة يموتون والأنبياء والرسل يموتون، قال الله تعالىٰ مخاطبًا نبيَّه محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

وبنوا آدم وعالم الجن وجميع العوالم تموت، قال -عز شأنه-: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فإذا حضر الأجل انقطع الرزق وانتهىٰ وانقطع الأثر وانتهىٰ زمن العمل، وفي الحديث: «إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ انقَطَعَ عَنهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ»[1].

وما سوىٰ ذلك فليس للإنسان إلا ما سعىٰ كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم:٣٩-٤١].

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: مَا يَلحَقُ الإِنسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعدَ وَفَاتِهِ، برقم (١٦٣١).

القبر

١١ - ثُمَّ هُم بَعدَ الضَّغطَةِ فِي القُبُورِ مُسَاءَلُونَ.

الشرح:

السؤال في القبور حق وواقع لا محالة كما جاء ذكره في النصوص المطهرة، وقد وكَّل الله ﷻ بهذا العمل أي سؤال المكلَّفين في الحياة البرزخية سواء قبروا في باطن الأرض أو لم يقبروا في باطن الأرض، لابد من المسألة، والمسألة عن ثلاثة أصول: عن الربِّ وعن الدِّين وعن الرسول، فمن عرف ربَّهُ في حياة العمل وقدَّرهُ حقَّ قدره، وعرف دينهُ وعمل به، وعرف نبيَّه -عليه الصلاة والسلام-، واقتدىٰ به في الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة علىٰ اختلاف طبقات الناس في العمل فإن الله يثبِّتُه ويلهمه الحجة.

ومَن لم يكن من أهل هذا الشأن ما تعلم شيئًا من العلم ولا عمل به، بل أعرض عنه، فإن الله يُضلُّه فلا يُلهَم الحجة جزاء له من جنس عمله، قال ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال جمهور المفسرين: نزلت في نعيم القبر وعذابه[١].

وقد صح بذلك الخبر، فعن البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ قَالَ: «نَزَلَت فِي عَذَابِ القَبرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَولُهُ ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾»[٢].

فالثبات لأهل النعيم الذين أتوا بأسباب النعيم، والإضلال لأهل الجحيم الذين أتوا بأسباب العذاب الأليم، والمراد بالضَّغطة ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «لِلقَبرِ ضَغطَةٌ لَو نَجَا مِنهَا أَحَدٌ، لَنَجَا مِنهَا سَعدُ بنُ مُعَاذٍ»[٣].

وهذه لكل أحد، لكن هي بحسب ما يُسلِف الناس في حياة العمل من الأعمال، فمنهم من تكون في حقه عذاب ومنهم دون ذلك، وملائكة السؤال

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٨٩، وما بعدها)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩٤، وما بعدها)، و«أضواء البيان» (٤/ ١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: مَا جَاءَ فِي عَذَابِ القَبرِ، برقم (١٣٦٩)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، إثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، برقم (٢٨٧١).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٢٤٢٨٣)، وابن حبان في «الصحيح» برقم (٣١١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٩٧٥)، وفي «الأوسط» برقم (٦٥٩٣)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» برقم (١٠٦).
والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٢٦٨) (١٦٩٤).

في القبور منكر ونكير كما ثبت ذلك في الحديث في السنن وغيرها وقد تقدم نصه.

فاللهم إنا نعوذ بك من عذاب القبر، وعذاب النار، إنك أنت الرحيم الغفار.

النُّشورُ والحسابُ

١٢- وَبَعدَ البِلَىٰ مَنشُورُونَ، وَيَومَ القِيَامَةِ إِلَىٰ رَبِّهِم مَحشُورُونَ، وَلَدَىٰ العَرضِ عَلَيهِ مُحَاسَبُونَ، بِحَضرَةِ المَوَازِينِ، وَنَشرِ صُحُفِ الدَّوَاوِينِ، أحصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، لَو كَانَ غَيرُ اللهِ ﷻ الحَاكِمَ بَينَ خَلقِهِ؛ لَكِنَّهُ اللهُ يَلِي الحُكمَ بَينَهُم بِعَدلِهِ بِمِقدَارِ القَائِلَةِ فِي الدُّنيَا، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

كَمَا بَدَأَهُ لَهُم مِن شَقَاوَةٍ وَسَعَادَةٍ يَومَئِذٍ يَعُودُونَ، ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧].

الشرح:

قوله: (وبعد البِلىٰ)؛ أي: بعد أن تبلىٰ أجسامهم فتكون عظامًا ورفاتًا، بل وتكون ترابًا، ينشئهم الله ﷻ خلقًا جديدًا، فيُبعثون يوم القيامة أحياء يوم النشر، فيُحشَرون إلىٰ الله ﷻ كما جاء وصفهم في قول النبي ﷺ: «إِنَّكُم مَحشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرلًا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الحشرِ، برقم (٦٥٢٦)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠).

وفي رواية[١]: «بهما»؛ أي: ليس معهم شيء، حتىٰ قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنظُرُ بَعضُهُم إِلَىٰ بَعضٍ؟

فَقَالَ: «الأَمرُ أَشَدُّ مِن أَن يُهِمَّهُم ذَاك»[٢].

(ثم تلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧])[٣]؛ أي: كلٌّ مشتغل بنفسه لا ينظر أحد إلىٰ أحد.

قوله: (ولدىٰ العرض عليه محاسبُون)؛ أي: ولدىٰ العرض عليه؛ أي: علىٰ الله محاسبون، فالمؤمنون يحاسبون حسابًا يسيرًا، بخلاف الكافرين وأهل الإجرام ولو كانوا من المسلمين فحساب الله لهم من جنس أعمالهم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨]. وهذا هو العرض علىٰ الله، ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٩].

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يَدنُو أَحَدُكُم مِن رَبِّهِ حَتَّىٰ

---

(١) أخرجها البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٩٧٠)، وأحمد في «المسند» برقم (٢٥/ ٤٣٢)، والحاكم في «المستدرك» برقم (٣٦٣٨). والحديث إسناده حسن كما قال الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (ص٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الحشرِ، برقم (٦٥٢٧)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٩).

(٣) أخرجه بهذه الزيادة: ابن أبي حاتم في «التفسير» برقم (٧٦٣٩)، والحاكم في «المستدرك» برقم (٨٦٨٩)، والطبراني في «الأوسط» برقم (٢٩٤).
والرواية صححها الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧/ ١٣٨٠) (٣٤٦٩).

يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيهِ. فَيَقُولُ: عَمِلتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَم.

وَيَقُولُ: عَمِلتَ كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَم.

فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرتُ عَلَيكَ فِي الدُّنيَا، فَأَنَا أَغفِرُهَا لَكَ اليَومَ»[1].

فينطلق إلىٰ الجنة مسرورًا مستبشرًا ومبشِّرًا بخلاف أهل الموبقات تحبسهم موبقاتهم من كبائر الذنوب التي لم يتوبوا منها، فمن كان من أهل التوحيد فعقوبته بقدر جريمته ومآله الجنة مهما طال سجنه وعذابه، ومن كان من أهل الكفر الأكبر والشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من الملة؛ فهؤلاء خالدون مخلدون في النار، لا يُقضىٰ عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، بل شأنهم كما قال ربهم ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

وقوله: (**بحضرة الموازين**)؛ أي: أن الموازين التي توزن بها الأعمال توضع يوم القيامة، وقد دلَّ علىٰ ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]. لا يغيب منها قليل ولا كثير.

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: سَترِ المُؤمِنِ عَلَىٰ نَفسِهِ، برقم (٦٠٧٠)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: قَبُولِ تَوبَةِ القَاتِلِ، برقم (٢٧٦٨).

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٨-٩].

فالميزان حق، وثبت عن النبي ﷺ أن للميزان كفَّتان إحداهما للحسنات والأخرىٰ للسيئات، بل إحداهما توزنُ فيها الحسنات وصحيفة الحسنات وعامل الحسنات والأخرىٰ للسيئات.

وقوله: (ونشر صحف الدَّواوين)؛ المراد بصحف الدَّواوين هي ما أملاه المكلَّفون من عالم الإنس والجن علىٰ الكرام الكاتبين، وما جرىٰ به القلم في اللوح المحفوظ، كل ذلك يكتب في الصحف وينشر.

وقد قال الله -تبارك وتعالىٰ- في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التكوير:١٠]؛ أي: نشر ما فيها من خير وشر، وهي الدَّواوين التي سجَّلها الكرام الكاتبُون وأملاها المكلَّفون، فجاءت موافقة لما كُتب في الأزل في اللوح المحفوظ، لا يتغير شيء ولا يتبدل، في هذا المعنىٰ قال الله ﷻ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء:١٣]. هذه هي الصحف، ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤].

فصحيفته وهو يشهد علىٰ نفسه لا يستطيع أن ينكر مما أملاه شيئًا، ومن أنكر أقام الله عليه الشهود من نفسه، كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ [النور:٢٤-٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢١].

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة من وصف يوم النشور والحساب، فقال: (**أحصاهُ الله ونسوه**)، أحصىٰ الله جميع الأعمال والعاملون ينسون لضعفهم، وهذا لفظ آية من القرآن: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة:٦].

وقوله: (**في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنةٍ**)، وهذا اليوم ذكره الله في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

وقول المؤلف: (**لو كان غيرُ الله عَزَّ وَجَلَّ الحاكمُ بين خلقه**)؛ أي: لكان كذلك، والحقيقة أن مواقف القيامة وأحوالها ليست واحدة، فإذا كان هذا اليوم طويلًا بهذا المقدار كما ذكره الله؛ فإنه علىٰ الكافرين عسير وعلىٰ المؤمنين يسير؛ لأنهم أتوا بأسباب الرحمة.

وقوله: (**لكنه الله يلي الحكم بينهم**) نعم، لا حاكم يوم القيامة بين المخلوقات إلا الله، لا يولِّي الله عَزَّ وَجَلَّ أحدًا يوم القيامة في الحكم بين الناس أبدًا، كما قال سبحانه: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد؛ فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

فالله هو الذي يقضي بين العباد وحده، فيجازي المحسن بإحسانه

والمسيء بإساءته ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

حقًّا إن الله يلي الحكم بينهم بعدله بمقدار القائلة في الدُّنيا، وهو أسرع الحاسبين؛ لأنه العالم بكل شيء، والمحيط بكل شيء، وعلىٰ كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فهو قادر علىٰ محاسبة جميع الخلائق في أقصر وقت.

وقوله: (**كما بدأه لهم من شقاوة وسعادة يومئذ يعودون**)؛ أي: الناس فريقان سعداء وأشقياء، فالسعداء هم الذين عملوا بطاعة الله واجتنبوا محارمه، والأشقياء عملوا بمعاصي الله وارتكبوا محارمه، فيجازىٰ كل عاملٍ من جنس عمله ثم يومئذ يعودون إليه أي إلىٰ الله ﷻ، وتجري قسمته فيهم فريق في الجنة وفريق في السَّعير، كما قال الله ﷻ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧]. والله أعلم.

الجنة والنار

١٣- وَأهلُ الجَنَّةِ يَومَئِذٍ فِي الجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ، وَبِصُنُوفِ اللَّذَّاتِ يتلذَّذُونَ، وَبِأفضَلِ الكَرَامَاتِ يُحبَرُونَ.

الشرح:

أهل الجنة الذين هم أهلها هم أولياء الله، أكرمهم الله ﷻ بها وبنعيمها من المآكل والمشارب والمساكن والزوجات الحسان والخدم والولدان، والنعيم الدائم والكمال والجمال كما جاء وصف ذلك في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥].

ونعتها الله بأجمل النعوت كما قال -عز شأنه-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥].

وقال -عز شأنه-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ [الرعد:٣٥].

ألا وإن دخول أولياء الله فيها هو بمحض فضل الله ورحمته، وأن اقتسام منازلها وما فيها فهو بسبب فعل الطاعات وترك السيئات إجلالًا لله، وعتقًا للنفس من غضب الله وأليم عقابه، وصالح الأعمال هي التي تنافس فيها المتنافسون وتسابق إليها المتسابقون، من دخل الجنة لا يبأس، ويخلد فلا يموت، لا تبلىٰ ثيابه، ولا يفنىٰ شبابه، له فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، ويكرمهم الله ﷻ بأفضل الكرامات، وهم مسرورون فيها علىٰ سبيل الدوام، تستأذن عليهم ملائكة الرحمن للسلام عليهم، قال -عز شأنه-: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]؛ أي: الجنة، وفوق النعيم: التمتع بالنظر إلىٰ الله -عز شأنه-، وهو أكمل نعيم؛ أي: نظرهم إلىٰ وجه الله الكريم، وخطابه لهم وخطابهم له، فكل ذلك نعيم هي وما فيها علىٰ سبيل الدوام الذي لا نهاية له أبدًا، بل نعيمهم في مزيد، وحياتهم في مزيد، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

ولقد وُصفت الجنات أيضًا في السنَّة المطهَّرة بما يتَّفقُ مع أوصافها في القرآن الكريم، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَونَ أَهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهِم، كَمَا تَتَرَاءَونَ الكَوكَبَ

الدُّرِّيَّ الغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المَشرِقِ أَوِ المَغرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَينَهُم.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تِلكَ مَنَازِلُ الأَنبِيَاءِ لَا يَبلُغُهَا غَيرُهُم.

قَالَ: بَلَىٰ، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرسَلِينَ»[1].

وفي صحيح البخاري[2]، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَينِ مَا بَينَهُمَا كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، فَإِذَا سَأَلتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِردَوسَ؛ فَإِنَّهُ أَوسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعلَىٰ الجَنَّةِ، وَفَوقَهُ عَرشُ الرَّحمَنِ، وَمِنهُ تَفَجَّرُ أَنهَارُ الجَنَّةِ».

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جَنَّتَانِ مِن فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِن ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَينَ القَومِ وَبَينَ أَن يَنظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِم إِلَّا رِدَاءُ الكِبرِ، عَلَىٰ وَجهِهِ فِي جَنَّةِ عَدنٍ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٥٦)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب تَرَائِي أَهلِ الجَنَّةِ أَهلَ الغُرَفِ كَمَا يُرَىٰ الكَوكَبُ فِي السَّمَاءِ، برقم (٢٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: دَرَجَاتِ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، برقم (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قولُه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢]، برقم (٤٨٧٨)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: إِثبَاتِ رُؤيَةِ المُؤمِنِينَ فِي الآخِرَةِ رَبَّهُم ﷻ، برقم (١٨٠).

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمرَةٍ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُم عَلَىٰ أَشَدِّ كَوكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَمتَخِطُونَ، وَلَا يَتفُلُونَ، أَمشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشحُهُمُ المِسكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَأَزوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، أَخلَاقُهُم عَلَىٰ خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِم آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»[1].

وجاء عن أبي هريرة ﷺ قال: «قُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا إِذَا رَأَينَاكَ رَقَّت قُلُوبُنَا وَكُنَّا مِن أَهلِ الآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقنَاكَ أَعجَبَتنَا الدُّنيَا، وَشَمَمنَا النِّسَاءَ وَالأَولَادَ.

قَالَ: لَو تَكُونُونَ -أَو قَالَ: لَو أَنَّكُم تَكُونُونَ- عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ عَلَىٰ الحَالِ الَّتِي أَنتُم عَلَيهَا عِندِي، لَصَافَحَتكُمُ المَلَائِكَةُ بِأَكُفِّهِم، وَلَزَارَتكُم فِي بُيُوتِكُم، وَلَو لَم تُذنِبُوا، لَجَاءَ اللهُ بِقَومٍ يُذنِبُونَ كَي يَغفِرَ لَهُم.

قَالَ: قُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثنَا عَنِ الجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟

قَالَ: لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا المِسكُ الأَذفَرُ، وَحَصبَاؤُهَا اللُّؤلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعفَرَانُ، مَن يَدخُلُهَا يَنعَمُ وَلَا يَبأَسُ، وَيَخلُدُ وَلَا يَمُوتُ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخلُوقَةٌ، برقم (٣٢٤٦)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: أَوَّلُ زُمرَةٍ تَدخُلُ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ وَصِفَاتُهُم وَأَزوَاجُهُم، برقم (٢٨٣٤).

لَا تَبلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفنَىٰ شَبَابُهُ»[١].

وثبت في الصحيحين أيضًا من حديث أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ لِلمُؤمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيمَةً مِن لُؤلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلمُؤمِنِ فِيهَا أَهلُونَ، يَطُوفُ عَلَيهِمِ المُؤمِنُ فَلَا يَرَىٰ بَعضُهُم بَعضًا»[٢].

وروىٰ أنس بن مالك ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «يَدخُلُ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ عَلَىٰ طُولِ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ المَلك، عَلَىٰ حُسنِ يُوسُفَ، وَعَلَىٰ مِيلَادِ عِيسَىٰ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَعَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ، جُردٌ مُردٌ، مُكَحَّلُونَ»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٨٠٤٣)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٥٢٦) وابن حبان في «الصحيح» برقم (٧٣٨٧)، والطبراني في «الأوسط» برقم (٧١١١)، وعند مسلم شاهد لجزئه الأول من حديث حنظلة، أخرجه في كتاب: التوبة، باب: فَضلِ دَوَامِ الذِّكرِ وَالفِكرِ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ وَالمُرَاقَبَةِ وَجَوَازِ تَركِ ذَلِكَ فِي بَعضِ الأَوقَاتِ وَالِاشتِغَالِ بِالدُّنيَا، برقم (٢٧٥٠).

وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، انظر: «التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان» (١٠/ ٣٨٦)(٧٣٤٤)، و«صحيح وضعيف الترمذي» الحديث (٣٥٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢]، برقم (٤٨٧٩)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فِي صِفَةِ خِيَامِ الجَنَّةِ وَمَا لِلمُؤمِنِينَ فِيهَا مِنَ الأَهلِينَ، برقم (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» برقم (١٥٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» برقم (٢٥٥)

=

وجاء في صحيح مسلم عن صهيب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ -تبارك وتعالىٰ-: تُرِيدُونَ شَيئًا أَزِيدُكُم؟ فَيَقُولُونَ: أَلَم تُبَيِّض وُجُوهَنَا؟ أَلَم تُدخِلنَا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعطُوا شَيئًا أَحَبَّ إِلَيهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِم ﷻ»(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، لَا يَقطَعُهَا، وَاقرَءُوا إِن شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠]»(٢).

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ: أَعدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ

=

ولهذا الحديث شواهد عن معاذ بن جبل وأبي هريرة والمقدام بن معدي كرب -رضوان الله عليهم-، أخرجها أحمد في «المسند» برقم (٧٩٣٣ و٢٢٠٢٣ و٢٢٠٨١ و٢٢١٠٧)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٥٤٥)، ولكن ليس فيها ذكر حُسْن يوسف ولا ميلاد عيسىٰ، وعن هذه الشواهد قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ١٢٢٤): «وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده». وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٩٨ و ٣٧٠٠).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: إِثبَاتِ رُؤيَةِ المُؤمِنِينَ فِي الآخِرَةِ رَبَّهُم ﷻ، برقم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: قَولِهِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠]، برقم (٤٨٨١)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقطَعُهَا، حديث برقم (٢٨٢٦).

مَا لَا عَينٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلَا خَطرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ، فَاقرَءُوا إِن شِئتُم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]»[(١)].

وورد في صحيح الإمام مسلم[(٢)] ما رواه جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ يَأكُلُونَ فِيهَا وَيَشرَبُونَ، وَلَا يَتفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمتَخِطُونَ.

قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟

قَالَ: جُشَاءٌ وَرَشحٌ كَرَشحِ المِسكِ، يُلهَمُونَ التَّسبِيحَ وَالتَّحمِيدَ، كَمَا تُلهَمُونَ النَّفَسَ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ زُمرَةٍ تَدخُلُ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ أَضوَإِ كَوكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم زَوجَتَانِ اثنَتَانِ، يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهِمَا مِن وَرَاءِ اللَّحمِ، وَمَا فِي الجَنَّةِ أَعزَبُ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخلُوقَةٌ، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٤).

(٢) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فِي صِفَاتِ الجَنَّةِ وَأَهلِهَا وَتَسبِيحِهِم فِيهَا بُكرَةً وَعَشِيًّا، برقم (٢٨٣٥).

(٣) سبق ذكر هذا الحديث وتخريجه في الصحيحين واللفظ المذكور هنا تفرد به مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: أَوَّلُ زُمرَةٍ تَدخُلُ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ وَصِفَاتُهُم وَأَزوَاجُهُم، برقم (٢٨٣٤).

وفي «مسند أحمد» و«صحيح البخاري» و«جامع الترمذي» عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «غَدوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَو رَوحَةٌ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوسِ أَحَدِكُم، أَو مَوضِعُ قَدَمٍ مِنَ الجَنَّةِ، خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، وَلَو أَنَّ امرَأَةً مِن نِسَاءِ أَهلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَت إِلَىٰ الأَرضِ لَأَضَاءَت مَا بَينَهُمَا، وَلَمَلَأَت مَا بَينَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا -يَعنِي: الخِمَارَ- خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا»[1].

وجاء في «مسند الشافعي» عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَتَانِي جِبرِيلُ وَفِي كَفِّهِ كَالمِرآةِ البَيضَاءِ يَحمِلُهَا، فِيهَا نُكتَةٌ، فَقُلتُ: مَا هَذِهِ التِّي فِي يَدِكَ يَا جِبرِيلُ؟

فَقَالَ: هَذِهِ الجُمُعَةُ؟

قُلتُ: مَا الجُمُعَةُ؟

قَالَ: لَكُم فِيهَا خَيرٌ كَثِيرٌ.

قُلتُ: وَمَا يَكُونُ لَنَا فِيهَا؟

قَالَ: يَكُونُ عِيدًا لَكَ وَلِقَومِكَ مِن بَعدِكَ، وَيَكُونُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ تَبَعًا لَكَ.

---

(١) أخرجه البخاري في: كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا في كتاب: الإمارة، باب: فَضلِ الغَدوَةِ وَالرَّوحَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، برقم (١٨٨٠).

قُلتُ: وَمَا لَنَا فِيهَا؟

قَالَ: لَكُم فِيهَا سَاعَةٌ لَا يَسأَلُ اللهَ عَبدٌ فِيهَا شَيئًا هُوَ لَهُ قسمٌ إِلَّا أَعطَاهُ إِيَّاهُ، أَو لَيسَ لَهُ بِقسمٍ إِلَّا ادُّخِرَ لَهُ فِي آخِرَتِهِ مَا هُوَ أَعظَمُ مِنهُ، قُلتُ: مَا هَذِهِ النُّكتَةُ الَّتِي هِيَ فِيهَا؟

قَالَ: هِيَ السَّاعَةُ وَنَحنُ نَدعُوهُ يَومَ المَزِيدِ.

قُلتُ: وَمَاذَا يَا جِبرِيلُ؟

قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الجَنَّةِ وَادِيًا فِيهِ كُثبَانٌ مِن مِسكٍ، فَإِذَا كَانَ يَومُ الجُمُعَةِ هَبَطَ مِن عِلِّيِّينَ عَلَىٰ كُرسِيِّهِ فَيَحُفُّ الكُرسِيَّ بِكَرَاسِيَّ مِن نُورٍ، فَيَجِيءُ النَّبِيُّونَ حَتَّىٰ يَجلِسُوا عَلَىٰ تِلكَ الكَرَاسِي، وَيَحُفُّ الكَرَاسِيَّ بِمَنَابِرَ مِن نُورٍ مِن ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالجَوَاهِرِ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّىٰ يَجلِسُوا عَلَىٰ تِلكَ المَنَابِرِ، ثُمَّ يَنزِلُ أَهلُ الغُرَفِ مِن غُرَفِهِم حَتَّىٰ يَجلِسُوا عَلَىٰ تِلكَ الكُثبَانِ، ثُمَّ يَتَجَلَّىٰ لَهُم ﷻ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقتُكُم وَعدِي، وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي، وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي، فَيَسأَلُونَهُ حَتَّىٰ تَنتَهِيَ رَغبَتُهُم، فَيَنفَتِحُ لَهُم فِي ذَلِكَ مَا لَا عَينٌ رَأَت وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ، وَذَلِكَ بِمِقدَارِ مُنصَرَفِكُم مِنَ الجُمُعَةِ.

ثُمَّ يَرتَفِعُ عَلَىٰ كُرسِيِّهِ، وَيَرتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَيَرجِعُ أَهلُ الغُرَفِ إِلَىٰ غُرَفِهِم، وَهِيَ لُؤلُؤَةٌ بَيضَاءُ وَزَبَرجَدَةٌ خَضرَاءُ، وَيَاقُوتَةٌ حَمرَاءُ غُرَفُهَا وَأَنهَارُهَا وَأَبوَابُهَا مُطَّرِدَةٌ فِيهَا، وَأَزوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَثِمَارُهَا مُتَدَلِّيَاتٌ

فِيهَا، فَلَيسَ إِلَىٰ شَيءٍ بِأَحْوَجَ مِنهُم إِلَىٰ يَومِ الجُمُعَةِ لِيَزدَادُوا نَظَرًا إِلَىٰ رَبِّهِم، وَيَزدَادُوا مِنهُ كَرَامَةً»[1].

قال ابنُ القيِّم عقب إيراد هذا الحديث: «هذا حديث كبير عظيم الشأن، رواه أئمَّةُ السنَّة وتلقَّوه بالقبول، وجمَّل الشافعيُّ به مسنده، إذ رواه فيه»[2].

ولعلِّي أكتفي بِهذا القدر الذي أوردته من كتاب الله وسنَّة رسولهﷺ في أوصاف الجنَّات في هذا البحث، وهو قليل من كثير، وغيض من فيض، يعلم ذلك من كان له اتصال متواصل بقراءة وتفهُّم القرآن الكريم وكتب التفاسير المشهورة، وارتباطٌ قويٌّ بكتب السنَّة المطهَّرة، بالإضافة إلىٰ إدراكه الدقيق، وفهمه العميق للغاية العظمىٰ التي يجب أن يسعىٰ كل مسلم لتحقيقها، ومعرفته الصحيحة للحكمة التي خُلق الإنسان من أجلها، والله المستعان.

ورحم الله الإمام ابن القيم الذي ارتوىٰ من هذه النصوص الصحيحة، فتفجَّرت ينابيعُ شعره، وتدفَّق جميل نثره في وصف الجنات العاليات

---

(١) «مسند الشافعي» برقم (٣٧٤)، وهو في «الأمّ للشافعي» (١/ ٢٣٩)، والطبراني في «الأوسط» برقم (٢٠٨٤و٦٧١٧)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» برقم (٦٦٩٠)، والحديث صحيح بمجموع طرقه كما قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٥٦٨) (١٩٣٣).

(٢) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٣١٣).

الغاليات، فمن الشعر قولُه(١):

وللهِ بــرد العــيش بــين خــيامها ... وروضاتِها والثغر في الروض يبسم
ولله واديهــا الــذي هــو مــوعد الــ ... ـمزيد لـوفد الحب لـو كـنت مـنهم
بــذيالك الــوادي يهــيم صــبابة ... محــب يــرىٰ أن الــصبابة مغــنم
ولله أفــراح المحبــين عــندما ... يخاطــبهم مــن فــوقهم ويــسلم
ولله أبــصار تــرىٰ الله جهــرة ... فـلا الـضيم يغـشاها ولا هـي تـسأم
فـيا نظرة أهدت إلىٰ الوجه نضرة ... أمـن بعـدها يـسلو المحـب المتيم
ولله كــم مــن خيــرة إن تبــسمت ... أضـاء لهـا نـور مـن الفجـر أعظـم
فــيا لــذة الأبــصار إن هــي أقبلت ... ويــا لــذة الأســماع حــين تكلــم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ... ويـا خجلـة الفجـرين حـين تبـسم
فـإن كـنت ذا قلـب علـيل بحـبها ... فلــم يـبق إلا وصـلها لـك مـرهم
ولاسيما فـي لـثمها عـند ضـمها ... وقـد صـار منها تحت جيدك معصم
تـراه إذا أبـدت لـه حـسن وجهها ... يلــذ بــه مــثل الوصــال ويــنعم
تفكـه مـنها العـين عـند امـتلائها ... فــواكه شـتىٰ طلعهـا لـيس يعـدم
عناقــيد مــن كــرم وتفــاح جــنة ... ورمــان أغــصان بــه القلــب مغـرم
فــيا خاطــب الحــسناء إن كــنت ... فهــذا زمــان المهــر فهــو المقــدم

---

(١) الأبيات من كتابه: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٧) وما بعدها.

وكن مبغضًا للخائنات لحبها ... فتحظىٰ بِها من دونهن وتنعم

وصم يومك الأدنىٰ لعلك في غد ... تفوز بعيد الفطر والناس صوم

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منزل لك يعلم

فحي علىٰ جنات عدن فإنَّها ... منازلنا الأولىٰ وفيها المخيم

وحي علىٰ السوق الذي فيه يلتقىٰ الـ ... محبون ذاك السوق للقوم يعلم

ومن نثره في وصف الجنات قولُه[1]: «وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرًّا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهَّرها من كل عيب وآفة ونقص.

فإن سألت عن أرضها وتربتها؛ فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها؛ فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن ملاطها؛ فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها؛ فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها؛ فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها؛ فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب.

وإذا سألت عن ثمرها؛ فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلىٰ من العسل، وإن سألت عن ورقها؛ فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت

(١) من كتابه: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٢٨٠) وما بعدها.

عن أنهارها؛ فأنهارٌ من لبن لَم يتغيَّر طعمُه، وأنهار من خمر لذَّةٍ للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّىٰ، وإن سألت عن طعامهم؛ ففاكهة مما يتخيَّرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابِهم؛ فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم؛ فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابِها؛ فبين المصراعين أربعون من الأعوام، وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها؛ فإنَّها تستفز بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلِّها؛ ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجِدُّ المسرع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها؛ فأدنىٰ أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام، وإن سألت عن خيامها وقبابِها؛ فالخيمة الواحدة من درَّة مجوَّفة، طولها ستون ميلًا من تلك الخيام، وإن سألت عن علاليها وجواسقها؛ فهي غرف من فوقها غرفٌ مبنية تجري من تحتها الأنهار، وإذا سألت عن ارتفاعها؛ فانظر إلىٰ الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها؛ فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فرشها؛ فبطائنها من إستبرق، مفروشة في أعلىٰ الرتب، وإن سألت عن أرائكها؛ فهي الأسِرَّة عليها البشخانات -وهي الحجال- مزرَّرة بأزرار الذهب، فما لها من فروج ولا خلال، وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم؛ فعلىٰ صورة القمر، وإن سألت عن أسنانهم؛ فأبناء ثلاث وثلاثين علىٰ صورة

آدم عليه السلام أبي البشر، وإن سألت عن سماعهم؛ فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلىٰ منه سماع أصوات الملائكة والنبيِّين، وأعلىٰ منهما خطابُ ربِّ العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها؛ فنجائب -إن شاء الله- مما شاء الله، تسير بِهم حيث شاءوا من الجنان، وإن سألت عن حليِّهم وشاراتِهم؛ فأساور الذهب واللؤلؤ علىٰ الرءوس ملابس التيجان.

وإن سألت عن غلمانِهم؛ فولدان مخلَّدون، كأنَّهم لؤلؤ مكنون، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم؛ فهنَّ الكواعب الأتراب، اللاتي جرىٰ في أعضائهن ماءُ الشباب، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، وإذا قابلت حِبَّها فقل ما تشاء من تقابل النيِّرين!

وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحِبَّين! وإن ضمَّها إليه فما ظنُّك بتعانق الغُصنين! يرىٰ وجهه في صحن خدِّها، كما يرىٰ في المرآة التي جلاها صيقلها، ويرىٰ مخَّ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها، ولو اطلعت علىٰ الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض ريحًا، ونصيفها علىٰ رأسها خير من الدنيا وما فيها».

إلىٰ أن قال: «وإن سألت عن السنِّ؛ فأترابٌ في أعدل سنِّ الشباب، وإن سألت عن الحُسن؛ فهل رأيت الشمس والقمر؟!

وإن سألت عن الحدق؛ فأحسن سواد، في أصفىٰ بياض، في أحسن حوَر، وإن سألت عن القُدود؛ فهل رأيت أحسن من الأغصان؟!

وإن سألت عن النُّهود؛ فهُنَّ الكواعب، نُهودهن كألطف الرمَّان، وإن سألت عن اللون؛ فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخلق؛ فهنَّ الخيرات الحسان، اللاتي جُمع لهن بين الحسن والإحسان، فما ظنُّك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها، وإذا انتقلت من قصر إلىٰ قصر، قلت: هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها.

وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة! وإن خاصرته فيا حسن تلك المعانقة والمخاصرة!

وإذا سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزَّه عن التمثيل والتشبيه، كما ترىٰ الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر، كما تواتر ذلك عن الصادق المصدوق النقل فيه، وذلك موجود في الصحاح والسنن والمسانيد، فاستمع يَومَ يُنَادِي المُنَادِي: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، إِنَّ رَبَّكُم ﷻ يَستَزِيرُكُم، فَحَيَّ عَلَىٰ زِيَارَتِهِ.

فَيَقُولُونَ: سَمعًا وَطَاعَةً، وَيَنهَضُونَ إِلَىٰ الزِّيَارَةِ مُبَادِرِينَ، فَإِذَا النَّجَائِبُ قَد أُعِدَّت لَهُم، فَيَستَوُونَ عَلَىٰ ظُهُورِهَا مُسرِعِينَ، حَتَّىٰ إِذَا انتَهَوا إِلَىٰ الوَادِي الأَفيَحِ الَّذِي جُعِلَ لَهُم مَوعِدًا، وَجُمعُوا هُنَاكَ فَلَم يُغَادِرِ الدَّاعِي مِنهُم أَحَدًا، أَمَرَ الرَّبُّ ﷻ بِكُرسِيِّهِ فَنُصِبَ هُنَاك، ثُمَّ نُصِبَ لَهُم مَنَابِرُ مِن نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِن

لُؤلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِن زَبَرجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِن ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِن فِضَّةٍ، وَجَلَسَ أَدنَاهُم -حَاشَاهُم أَن يَكُونَ فِيهِم دَنِيٌّ- عَلَىٰ كُثبَانِ المِسكِ، فَمَا يَرَونَ أَنَّ أَصحَابَ الكَرَاسِي فَوقَهم فِي العَطَايَا.

حَتَّىٰ إِذَا استَقَرَّت بِهِم مَجَالِسُهُم، وَاطمَأَنَّت بِهِم مَسَاكِنُهُم نَادَىٰ المُنَادِي: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُم عِندَ اللهِ مَوعِدًا، يُرِيدُ أَن يُنجِزَكُمُوهُ!

فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَم يُبَيِّض وُجُوهَنَا، وَيُثقل مَوَازِينَنَا، وَيُدخِلنَا الجَنَّةَ، وَيُزَحزِحنَا عَنِ النَّارِ؟ فَبَينَمَا هُم كَذَلِكَ، إِذ سَطَعَ لَهُم نُورٌ أَشرَقَت لَهُ الجَنَّةُ، فَرَفَعُوا رُءُوسَهُم، فَإِذَا الجَبَّارُ -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَت أَسمَاؤُهُ- قَد أَشرَفَ عَلَيهِم مِن فَوقِهِم، وَقَالَ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، سَلَامٌ عَلَيكُم!!

فَلَا تُرَدُّ هَذِهِ التَّحِيَّةُ بِأَحسَنَ مِن قَولِهِم: اللَّهُمَّ أَنتَ السَّلَامُ، وَمِنكَ السَّلَامُ، تَبَارَكتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكرَامِ!!

فَيَتَجَلَّىٰ لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ يَضحَكُ إِلَيهِم وَيَقُولُ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَا يَسمَعُونَ مِنهُ تَعَالَىٰ: أَينَ عِبَادِيَ الَّذِينَ أَطَاعُونِي بِالغَيبِ وَلَم يَرَونِي، فَهَذَا يَومُ المَزِيدِ؟!

فَيَجتَمِعُونَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: أَن قَد رَضِينَا، فَارضَ عَنَّا!

فَيَقُولُ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، إِنِّي لَو لَم أَرضَ عَنكُم لَم أُسكِنكُم جَنَّتِي، هَذَا يَومُ المَزِيدِ، فَسَلُونِي!

فَيَجتَمِعُونَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: أَرِنَا وَجهَكَ نَنظُر إِلَيهِ! فَيَكشِفُ لَهُمُ

الرَّبُّ ﷻ الحُجُبَ، وَيَتَجَلَّىٰ لَهُم، فَيَغشَاهُم مِن نُورِهِ مَا لَولَا أَنَّ اللهَ قَضَىٰ أَلَّا يَحتَرِقُوا، وَلَا يَبقَىٰ فِي ذَلِكَ المَجلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ رَبُّهُ تَعَالَىٰ مُحَاضَرَةً، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولُ: يَا فُلَانُ! أَتَذكُرُ يَومَ فَعَلتَ كَذَا -يُذَكِّرُهُ بِبَعضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنيَا-؟

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَم تَغفِر لِي؟!

فَيَقُولُ: بَلَىٰ، بِمَغفِرَتِي بَلَغتَ مَنزِلَتَكَ هَذِهِ.

فيا لذَّة الأسماع بتلك المحاضرة! ويا قرَّة عيون الأبرار بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في الدار الآخرة! ويا ذِلَّة الراجعين بالصفقة الخاسرة!

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٥]».

ورحم الله علامة عصره، وقدوةَ من جاء من بعده الشيخَ حافظ بن أحمد الحكمي[1]، إذ وصف الجنة والنفوس المطمئنة الوارثة للنعيم المقيم في

(١) حافظ بن أحمد حكمي ولد سنة ١٣٢٤هـ لازم الشيخ عبد الله القرعاوي ودرس عليه، كان حافظًا ذكيًّا، شاعرًا مجودًا، أثنىٰ عليه شيخه، وطلب منه التأليف، فألف كتبًا منها: «معارج القبول شرح سلم الوصول»، و«أعلام السنة المنشورة»، «دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الاصطلاح»، انظر: ترجمة ولده له في مقدمة «معارج القبول» (١/ س-ط/ المطبعة السلفية).

جنات النعيم فقال[1]:

فإن تك من أهل السعادة والتقىٰ ... فإن لها الحسنىٰ بحسن فعالها

تفوز بجنات النعيم وحورها ... وتحبر في روضاتِها وظلالها

وترزق مما تشتهي من نعيمها ... وتشرب من تسنيمها وزلالها

وإن لهم يوم المزيد لموعدًا ... زيادة زلفىٰ غيرهم لا ينالها

وجوهٌ إلىٰ وجه الإله نواظر ... لقد طالَما بالدمع كان ابتلالها

تجلَّىٰ لها الربُّ الرحيم مسلِّمًا ... فيزداد من ذاك التجلِّي جمالها

بِمقعد صدق حبذا الجار ربهم ... ودار خلود لَم يخافوا زوالها

فواكهها مما تلَذُّ عيونُهُم ... وتطرد الأنهار بين خلالها

علىٰ سرر موضونة ثم فرشهم ... كما قال فيها ربُّنا واصفًا لها

بطائنها إستبرق كيف ظنكم ... ظواهرها لا منتهىٰ لجمالها

قلت: وإن في تلك الأوصاف لروضات الجنات التي تكاد نفوس الصالحين تطير شوقًا إليها؛ لأعظم حافز علىٰ العمل الصالح المبرور الذي يكون سببًا في تبوُّؤ منازلها، ووسيلة إلىٰ التنعم بأصناف النعيم فيها علىٰ سبيل الخلود الدائم، والحبور السرمدي الكامل، وكأنني بأهلها يردِّدون:

---

(١) هذه الأبيات من منظومته «الهائية» وهي ٣٩ بيتًا، والأبيات المذكورة من البيت ٢٤ إلىٰ البيت ٣٣.

لك الشكر يا ربَّ العباد لك الثنا ... أنت الذي وفَّقتنا وأعنتنا

علىٰ فعل ما يرضيك ثم حبَوتنا ... بالقرب منك ما أجلَّك محسنا

غرست لنا دار المقامة مسكنا ... ورضيت عنا ذا الجلال وذا الغنىٰ

فها نحن في دار النعيم تحفُّنا ... روضاتُها مما اشتهته نفوسنا

أورثتنا أرض الجنان تكرُّما ... ومن قبل ذا واعدتنا فصدقتنا

وخلق الله النار وخلق لها أهلها، ألا وإن أسباب دخولها ترك الطاعات واجتراح السيئات، وأهل النار قسمان:

* **قسم لهم الخلود الدائم:** وهم أهل الكفر الأكبر والشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من ملة الإسلام أو المضاد للإسلام، هؤلاء هم أهل النار الذين لا يموتون فيها ولا يحيون ولا يرجىٰ لهم خروج منها، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٥]؛ أي: منقطعون من كل سرور وآيسون من كل خير.

قال -عز شأنه-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ قد أيسوا من كل خير وقاسوا أليم العذاب الذي لا تطيقه الأرواح ولا تسيغه

الأجسام، ولكن ظلموا أنفسهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ومالك خازن النار، يريدون الموت.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]؛ أي: في النار كما ذكر الله لا يموتون فيها ولا يحيون، نعوذ بالله منها، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٨].

وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٩]، إن الذي يجترح السيئات ويقيم علىٰ المعاصي ويرفض الطاعات، هو الذي ظلم نفسه وما ظلمه الله، الذي أنزل عليه الكتب وأرسل إليه الرسل وركَّب فيه العقل، وأمده بالجوارح قد أقام عليه الحجة بذلك، فإذا عصىٰ الله فقد ظلم نفسه، والله يعذِّبه عدلًا منه وحكمة؛ لأنه أحكم الحاكمين وخير الحاسبين.

* وأما قسم من أهل النار وهم **عصاة الموحدين** الذين إن عذبهم الله عذبهم بقدر جرائمهم ثم مآلهم إلىٰ الجنة بفضل الله ﷻ ورحمته ثم بشفاعة الشافعين، فيشفع الملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنون في عصاة الموحدين؛ كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «... **فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ المُؤمِنُونَ، وَلَم يَبقَ إِلَا أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ**»[(١)].

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٣)، وأخرجه البخاري مختصرًا، ولم يذكر موطن الشاهد في كتاب الإيمان، باب: تَفَاضُلِ أَهلِ الإِيمَانِ فِي الأَعمَالِ، برقم (٢٢).

وهذا هو الحق وهو معتقد أهل السنة والجماعة، بأن عصاة الموحدين لا يخلدون في النار أبدًا بل مآلهم الجنة، ويُخرج الله ﷻ من النار من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان، وأما لبثه في النار فبقدر ما جنىٰ والله ﷻ هو الذي يحكم في ذلك، وهو الذي يُقدِّر ذلك ويتكرم علىٰ عباده الذي عصوه وهم من أهل التوحيد بإخراجهم من النار إلىٰ الجنة دار النعيم المقيم، ويعطيهم الله ﷻ ما يتمنون وفوق ما يتمنون، والله أعلم.

١٤ - فَهُم حِينَئِذٍ إِلَىٰ رَبِّهِم يَنظُرونَ، لَا يُمَارُونَ فِي النَّظَرِ إِلَيهِ وَلَا يَشُكُّونَ[1] فَوُجُوهُهُم بِكَرَامَتِهِ نَاضِرَةٌ، وَأَعيُنُهُم بِفَضلِهِ إِلَيهِ نَاظِرَةٌ، فِي نَعِيمٍ دَائِمٍ مُقِيمٍ ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٨].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد:٣٥].

وَأهلُ الجَحدِ عَن رَبِّهِم يَومَئِذٍ مَحجُوبُونَ، وَفِي النَّارِ يُسجَرُونَ ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦]. خَلَا مَن شَاءَ الله مِنَ المُوَحِّدِينَ إخرَاجَهُم مِنهَا.

الشرح:

الكلام علىٰ الرؤية؛ أي: رؤية المؤمنين ربهم في الدار الآخرة في عرصات القيامة وفي الجنة، والناس في الرؤية ثلاثة أقسام، أي: في رؤية الناس لربهم هم ثلاثة أقسام: طرفان ووسط:

* **الطرف الأول:** من نفوا الرؤية، فقرروا أن الله لا يُرَىٰ لا في الدنيا ولا في الآخرة، **كالمعتزلة والخوارج**، ومعتقدهم هذا معتقد فاسد لما فيه من تكذيب

(١) صح هذا في الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري في كتاب: الآذان، باب: فضل السجود، برقم (٨٠٦)، و مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٢).

القرآن الكريم.

* **الطرف الثاني**: قوم غَلَوا في الإثبات، فأثبتوا أن الناس يرون ربهم في الدنيا والآخرة، وهم **غلاة الصوفية** يدَّعون ذلك لزعمائهم، وقد كذبوا في ذلك لأن الله ﷻ لا يُرىٰ في الدنيا؛ أي: لا يراه أحد، حتىٰ إن رسول الله الذي هو أكمل الخلق إيمانًا وأقربهم من ربه وأفضلهم ما رأىٰ ربه بعيني البصر، وإنما رآه بقلبه[1]، فبطل قولهم، ولا غرابة من أن يقولوا باطلًا، فهم أجهل الخلق؛ لإعراضهم عن علم الشريعة وادِّعائهم نزول العلم عليهم فيوضات، وهي دعوىٰ الأفاكين بدون برهان.

* والوسط، وهم **أهل السنة والجماعة** الذين أكرمهم الله ﷻ بفهم نصوص الكتاب والسنة والعمل بمقتضاها، نفوا الرؤية في الدنيا؛ أي: لا يرىٰ الله أحد من خلقه في الدنيا ولو كان نبيًّا رسولًا، وأثبتوا الرؤية للمؤمنين ربهم في الجنة، كما صرَّحت بذلك نصوص الكتاب والسنة، أما الكتاب فقول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]؛ أي: وجوه المؤمنين يوم القيامة حسنة مضيئة تنظر إلىٰ وجه الله -تبارك وتعالىٰ-.

وهذه الجملة التي أوردها المؤلف منتزعة من هذه الآية الكريمة من

---

(١) ثبت هذا من قول ابن عباس موقوفًا عليه، أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، بَاب: مَعنَىٰ قَولِ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، وَهَل رَأَىٰ النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ لَيلَةَ الإسرَاءِ، برقم (١٧٦).

سورة القيامة، حيث قال المؤلف: (فهُم)؛ أي: أهل الجنة، (حينئذٍ)؛ أي: في الدار الآخرة، (إلىٰ ربهم ينظرون) بأعينهم عيانًا.

وقوله: (لا يمارُون)؛ أي: لا يضامُّون في رؤيته ولا يشكُّون كذلك.

وقوله: (فوجوههُم بكرامته ناضرة)، وهي كما أسلفت منتزعة من الآية الكريمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة مضيئة.

(وأعينهم بفضله إليه ناظرة)، منتزعة من قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، والنظر إلىٰ الله ﷻ في الجنة من أعلىٰ أصناف النعيم، وأعلىٰ من نعيمهم الذي يتمتعون به من المآكل والمشارب والمساكن والزوجات الحسان والخدم والولدان أعلىٰ من ذلك كله أن ينظروا إلىٰ وجه ربهم الكريم -تبارك وتعالىٰ-، فنعيمهم دائم مقيم، دائم ليس له منتهىٰ، ومقيم لا يحول ولا يزول ولا يبغون عنه حولًا، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨]؛ أي: لا يرغبون في الانتقال منها أبدًا.

ونفىٰ عنهم ما كان يصيب الخلق في الدنيا؛ من النصب والتعب والهم والحزن، هذا منفيٌّ في الجنة عن أصحاب الجنة، كما قال الله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]؛ أي: لا يخرجون من الجنة أبدًا لأنها دار إقامة لا نهاية لها.

وقد ثبت في نصوص الكتاب والسنة أن الدُّور ثلاثة:

* **دار الدنيا**: لها بداية ولها نهاية، فما كانت دنيا ولا بشر ولا شيء من المخلوقات، كما في الحديث الثابت عن النبي ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلَم يَكُن شَيءٌ غَيرَهُ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شَيءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ**»[1]. الحديث بطوله، مما يدلُّ علىٰ أن جميع المخلوقات في السموات والأرض والسموات والأرض بذاتها ما كانت موجودة حتىٰ أوجدها الله -تبارك وتعالىٰ-.

وأوجد الله هذه الدنيا وهي دار عمل لها بداية ولها نهاية، ونهايتها عند مفارقة الروح الجسد ومن مات فقد قامت قيامته، وإذا فارقت الروح الجسد سواء دفن في باطن الأرض أم لم يدفن دخل دارًا ثانية وهي دار البرزخ.

* **الدار البرزخية**: التي هي أول منازل الآخرة وهي لها بداية ولها نهاية، ونهايتها إذا جاءت الدار الآخرة إذا بعث الله الخلائق من أجداثها.

الدار الثالثة: الدار الآخرة: التي هي حساب وجزاء علىٰ الأعمال ولا عمل، وكل يجازىٰ من جنس عمله.

فأهل النار في دارهم وأهل الجنة في دارهم كما ذكر الله ﷻ ذلك وذكر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، بَاب: مَا جَاءَ فِي قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، برقم (٣١٩١).

رسوله -عليه الصلاة والسلام-، فأما أهل الجنة ففي نعيمهم خالدون مخلَّدون، وأما أهل النار ففي دارهم دار العذاب والنكال، وهم كما أسلفت مرارًا كما هو مقتضىٰ النصوص قسمان:

* **قسم خالدون مخلَّدون في النار؛ لا يُفتَّرُ عنهم وهم فيها مبلسون**، قد انقطعوا من كل خير ورجاء، وهم أهلها الذين لم يؤمنوا بالله -تبارك وتعالىٰ- ولم ينقادوا لما جاءت به رسله من أهل الكفر الأكبر والشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من الملة، فهؤلاء أهل النار لا يموتون فيها ولا يحيون، بل هم كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦].

ووصف الله ﷻ أحوالهم بقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

* **وأما القسم الثاني**: عصاة الموحدين فإنهم يلبثون إلىٰ أمد، كُلٌّ بقدر ما جنىٰ، فيخرجهم الله ﷻ من النار بفضله ورحمته ثم بشفاعة الشافعين، يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة دار النعيم المقيم، ويعطيهم ما لا يتطلعون إلىٰ سواه، والله أعلم.

طاعةُ الأئمة والأمراء، ومنعُ الخروج عليهم

١٥ - وَالطَّاعَةُ لأولِي الأمرِ فِيمَا كَانَ عِندَ اللهِ ﷻ مَرضِيًّا، وَاجتِنَابُ مَا كَانَ عِندَ اللهِ مُسخِطًا.

وَتَركُ الخُرُوجِ عِندَ تَعَدِّيهِم وَجَورِهِم، وَالتَّوبَةُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ كَيمَا يَعطِفَ بِهِم عَلَىٰ رَعِيَّتِهِم.

الشرح:

طاعةُ الأئمة والأمراء ومنع الخروج عليهم هو من معتقد أهل السنة والجماعة، فإنهم يرون بأن طاعة السلطان المسلم الذي ولَّاه الله ﷻ على الأمة ولاية عامة أو ولاية خاصة؛ فإن طاعته واجبة ولا يجوز مخالفته ولا يجوز الخروج عليه، والطاعة له مقيَّدة بالمعروف كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعرُوفِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، بَاب: السَّمعِ وَالطَّاعَةِ لِلإِمَامِ مَا لَم تَكُن مَعصِيَةً، برقم (٧١٤٥)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، برقم (١٨٤٠).

لذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**والطَّاعةُ لأولي الأمر فيما كان عند الله عَزَّ وَجَلَّ مرضيًّا**)؛ يعني: تطيعهم في كل ما كان طاعة لله أو مباحًا ولا تطع في المعصية، وربما يقع الوالي في معصية ما فلا تطعه في تلك المعصية، ولا يجوز أن تخرج عن طاعته خروجًا كليًّا، لما يترتب علىٰ ذلك من الفساد والشر المستطير، وقد قال النبي ﷺ: «**تَسمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِن ضُرِبَ ظَهرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسمَع وَأَطِع**»[1]؛ أي: الوالي.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**عَلَيكَ السَّمعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسرِكَ وَيُسرِكَ، وَمَنشَطِكَ وَمَكرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيكَ**»[2]. **وما كان معصية فلا يطاع فيها**، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة انطلاقًا من قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]. وأولو الأمر الحكام والعلماء، الحكام من المسلمين والعلماء الربانيين.

وقول المؤلف: (**وترك الخروج عند تعدِّيهم وجورهم**)؛ يعني: لا يجوز الخروج عليهم وإن تعدَّوا وجاروا، ولو ظلموا أنفسهم بفعل المعصية، أو ظلموا غيرهم بأخذ المال أو ضرب الظهر فإنه لا يجوز الخروج

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة، برقم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، بَاب: السَّمعِ وَالطَّاعَةِ لِلإِمَامِ مَا لَم تَكُن مَعصِيَةً، برقم (٧٠٥٦)، ومسلم في كتاب: الفتن، باب: قَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَتَرَونَ بَعدِي أُمُورًا تُنكِرُونَهَا». برقم (١٨٣٦).

عليهم وإنما يجب الصبر والدعاء لهم بالهداية والتوفيق والسداد حتىٰ يعدلوا عن الظلم ويعودوا إلىٰ رحاب الحق.

وفي الأثر: كيفما تكونوا يُولَّىٰ عليكم[1]، فإذا وجدت الرَّعية من واليها جورًا أو ظلمًا فعليهم أن يتفقدوا أحوالهم وأعمالهم، ويتوبوا إلىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- من التقصير في طاعته أو الارتكاب لمحارمه، فإذا فعلوا ذلك فإن الله ﷻ يوفق الراعي للرحمة بهم والعناية بشأنهم فيما يتعلق بأمور معادهم ومعاشهم.

(١) روي هذا الأثر مرفوعًا للنبي ﷺ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٧٠٠٦)، والقضاعي في «المسند» برقم (٥٧٧)، ولكن أسانيده واهية لذلك حكم الحفاظ بضعفه، ومنهم الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١/ ٤٩٠) (٣٢٠)، وقال: «ثم إن الحديث معناه غير صحيح علىٰ إطلاقه عندي، فقد حدثنا التاريخ تولي رجل صالح عقب أمير غير صالح والشعب هو هو!».

قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٥٢٠): «وعند الطبراني معناه من طريق عمر وكعب الأحبار والحسن؛ فإنه سمع رجلًا يدعو علىٰ الحجاج فقال له: لا تفعل إنكم من أنفسكم أتيتم، إنا نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن يستولي عليكم القردة والخنازير، فقد روي أن أعمالكم عمالكم، وكما تكونون يولىٰ عليكم».

الإمساكُ عن تكفير أهل القبلة

١٦- وَالإمسَاكُ عَن تَكفِيرِ أهلِ القِبلَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنهُم فِيمَا أحدَثُوا مَا لَم يَبتَدِعُوا ضَلَالًا، فَمَنِ ابتَدَعَ مِنهُم ضَلَالًا، كَانَ عَلَىٰ أهلِ القِبلَةِ خَارِجًا، وَمِنَ الدِّينِ مَارِقًا، وَيُتقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ بِالبَرَاءَةِ مِنهُ، ويُهجَرُ ويُحتَقَرُ، وَتُجتَنَبُ غُدَّتُهُ، فَهِيَ أَعدَىٰ مِن غُدَّةِ الجَرَبِ.

الشرح:

الإمساك عن تكفير أهل القبلة هو معتقد السلف الصالح أهل السنة والجماعة، ومقتضىٰ دلالة النصوص من الكتاب والسنة؛ أي: أن السلف الصالح لا يكفِّرون أهل القبلة بذنب ما لم يكن كفرًا أكبر أو شركًا أكبر أو نفاقًا اعتقاديًّا أو إلحادًا مخرجًا من الملة، وما كان دون ذلك من الذنوب ككبائر الذنوب؛ فأهل السنة والجماعة لا يكفِّرون أهل القبلة به، وإنما ينصحون لمرتكب الذنب ويرشدونه إلىٰ ترك الذنوب وبيان خطرها وشؤم عواقبها، غير أنهم يتبرءون من أهل الضلال بقدر ما فيهم من ضلال.

وأهل الضلال إما أن يكون ضلالهم مخرجًا لهم من الملة، فهؤلاء

يعتبرون خارجين على أهل القبلة ومارقين عما جاء به رسولنا ﷺ، فيُبغضون بغضا كليًّا ويُهجرون هجرًا كليًّا، وإن كان الابتداع والإحداث غير مخرج من الملة كالبدع المضلة التي لم تخرج أهلها من دائرة الإسلام فإنهم يقيمون عليهم الحجة بأدلة الكتاب والسنة وببيان منهج السلف من الاستقامة على السنة والعناية بها وهجر البدع وأهلها.

فحينئذٍ يُهجر المبتدع بقدر ما فيه، ويُبغض بقدر ما فيه من البدعة والضلال، ويجتنبهُ أهل السُّنة فلا يجالسونه ولا يؤاكلونه ولا يشاربونه، اللهم إلا عند بذل النصيحة له فالجلوس معه دعوة له ليرجع عن ضلاله أو لتقوم الحجة عليه بأدلة الكتاب والسنة، ولهذا فإن السلف الصالح يحذِّرون من أهل البدع من مجالستهم ومن أخذ العلم عنهم، ولا يقبلون شهادتهم؛ لأنهم دعاة شر.

فكل من دعا إلى بدعة فإنه يجب أن يُجتَنب ويُحتقَر حتى يفيء إلى الحق ويترك البدع والضلال، فيكون أخا للمسلمين والمؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم، وقد خالف في هذه الأصل؛ أي: طاعة ولي الأمر وعدم الخروج عليه وعدم تكفير أهل القبلة، خالف في ذلك المعتزلة والخوارج.

فالخوارج والمعتزلة أولًا اتفقوا على الحكم بالكفر في الدار الآخرة على مرتكبي الكبائر التي لا تخرج من الإسلام إذا ماتوا ولم يتوبوا عنها، حكموا عليهم بالخلود في النار وأنهم لا يخرجون منها أبدًا، ولو كانوا من

أهل التوحيد والصلاة والصوم وغيرها، واختلف المعتزلة والخوارج في الحكم الدنيوي علىٰ أهل الكبائر.

فقالت المعتزلة في أهل الكبائر: هم في منزلة بين المنزلتين لا هم مسلمون ولا هم كفار.

وقال الخوارج: إنهم كفار تحلُّ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، فخالفوا أهل السنة السلف الصالح وأتباعهم.

وكذلك في طاعة ولاة الأمور يرون الخروج علىٰ من ارتكب من ولاة الأمور معصية من الكبائر فورًا بالسيف ومقاتلته خلافًا لما عليه أهل السنة، وقد خرجوا علىٰ عليِّ بن أبي طالب ﷺ، وجرت المعركة بينه وبينهم، فهزمهم الله وأذاقهم العقوبة الدنيوية قبل الأخروية، وهكذا في كل جيل غالبًا تمرُقُ مارقة من الذِين هم الخوارج، يخرجون علىٰ ولاة أمور المسلمين وعلىٰ العلماء أهل السنة والجماعة، ولكن يكون حالهم هو ما أخبر به النبي ﷺ عنهم بقوله: (**كُلَّمَا خَرَجَ قَرنٌ قُطِعَ، أَكثَرَ مِن عِشرِينَ مَرَّةً...**)[1].

والخروج يكون بشيئين:

* **خروج بالكلمة** المخالفة للسنة وهدي النبي ﷺ، كَسَبِّ الحكام

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٦٨٧١)، وابن ماجه في «السنن» برقم (١٧٤)، والطبراني في «الكبير» برقم (١٤٥٤٢).
والحديث حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٥٨٢) (٢٤٥٤).

والعلماء ونشر مثالبهم ومعايبهم، وإيغار صدور عامة الناس عليهم، والاجتماعات السرية ضدهم ونحو ذلك، هذا خروج بالكلمة، أو الفتاوىٰ المضلَّة التي تبيح الخروج علىٰ من ظلم وجار من ولاة أمور المسلمين.

* **وخروج يكون بالسلاح** لمقاتلة ولاة الأمور ومن معهم من العلماء والمسلمين الذين عرفوا حق ولي الأمر المسلم، وإن ظلم وإن جار وعصىٰ ما لم يأت بكفر بواح، كما قال النبيﷺ لما قالوا له: ألا نقاتلهم -يعني: أئمة الجور-، قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، إلَّا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**»[1].

وكما خالفت الخوارج والمعتزلة أهل السنة والجماعة في باب الوعد والوعيد، وفي حق ولاة الأمور وفي التكفير كما سبق بيانه، خالفوهم كذلك وخرجوا عن الطريق الصحيح والنهج القويم في هذه الأبواب وفي غيرها مما سبق بيانه، ثم المبتدع يجب أن يُجتَنب حتىٰ لا تنتقل بدعته إلىٰ غيره، فالخُلطة لها أثرها السيئ، أعني خُلطة المبتدعين والعصاة المجاهرين لها أثرها علىٰ الناس.

فالغالب علىٰ من خالطهم وجالسهم وسمع منهم أن يصيبه ما أصابهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: قَولِ النَّبِيِّﷺ: «سَتَرَونَ بَعدِي أُمُورًا تُنكِرُونَهَا»، برقم (٧٠٥٥)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، برقم (١٧٠٩).

من الضلال والبدع والعدول عن السنة ومحاربة أهلها، لذا هجرهم السلف وابتعدوا منهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، وهكذا في كل زمان ومكان يجب أن يبتعد صاحب السنة عن صاحب البدعة، اللهم إلا إذا دعاه وأرشده ليكون صاحب سنة ويبتعد عن ما هو عليه من البدع فهذا من قبيل الدعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيله بالبرهان، والله أعلم.

سؤال: هل هناك فرق بين البغاة والخوارج؟

الجواب: نعم، البغاة لهم حكم يخصهم ليسوا كالخوارج، بل البغاة قد يكون خروجهم علىٰ الوالي يطلبون منه جلب مصلحة أو دفع ضر، فإذا دفع عنهم الضر وجلب لهم المصلحة بحسب قدرته انتهت خصومتهم، بخلاف الخوارج فإنهم كفَّروه أولًا وقاتلوه ثانيًا، مهما كان الحال فإنهم يقاتلون الوالي إذا جار أو ظلم أو ارتكب معصية، ولا يَشكُون إليه ضررًا كأن يزيل عنهم مظلمة، ولا يعترفون بولايته طالمَا كان عاصيًا أو فاجرًا، فإنهم يرونه قد خرج عن الإسلام ولا بيعة له علىٰ أحد ولا ولاية له.

وقد يكون بغيُ البغاة من بعضهم علىٰ بعض، فإنه يتوسط طائفة من المؤمنين ويسعون بالإصلاح بين البغاة والمعتدىٰ عليهم؛ فيعرف المعتدي من المعتدىٰ عليه، فإن رجع المعتدِي عن اعتدائه، فذاك وإن لم يرجع فقد أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية حتىٰ تفيء إلىٰ أمر الله، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

﴿ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

ففرَّق بين الطائفتين، أي البغاة المسلمين الذين ليسوا خوارج وبين الخوارج الذين هم أهل البدع والضلال.

الصَّحابةُ رضي الله عنهم

١٧- وَيُقَالُ بِفَضلِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه؛ فَهُوَ أفضَلُ الخَلقِ وَأَخيَرُهُم بَعدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنُثَنِّي بَعدَهُ بِالفَارُوقِ، وَهُوَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه؛ فَهُمَا وَزِيرَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَضَجِيعَاهُ فِي قَبرِهِ، وَنُثَلِّثُ بِذِي النُّورَينِ عُثمَانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، ثُمَّ بِذِي الفَضلِ وَالتُّقَىٰ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضيَ اللهُ عَنهُم أجمَعِينَ-.

ثُمَّ البَاقِينَ مِنَ العَشرَةِ الَّذِينَ أوجَبَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ الجَنَّةَ، ونَخلِصُ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنهُم مِنَ المَحَبَّةِ بِقَدرِ الَّذِي أوجَبَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ التَّفضِيلِ، ثُمَّ لِسَائِرِ أصحَابِهِ مِن بَعدِهِم -رَضيَ اللهُ عَنهُم أجمَعِينَ-.

وَيُقَالُ بِفَضلِهِم، وَيُذكَرُونَ بِمَحَاسِنِ أفعَالِهِم، وَنُمسِكُ عَنِ الخَوضِ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُم، فَهُم خِيَارُ أهلِ الأرضِ بَعدَ نَبِيِّهِم، ارتَضَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ، وَجَعَلَهُم أنصَارًا لِدِينِهِ، فَهُم أئِمَّةُ الدِّينِ، وَأعلَامُ المُسلِمِينَ -رَضيَ اللهُ عَنهُم أجمَعِينَ-.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الفصل معتقد أهل السنة والجماعة في

أصحاب رسول الله ﷺ عمومًا، وفي الخلفاء الأربعة خصوصًا، وبيَّنَ بأن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فأفضل الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكرٍ الصِّدِّيق، وهو الخليفة الأول بعد النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-، ثم يليه عمر ﷺ فعثمان فعلي، وترتيبهم هذا هو الترتيب الشرعي الذي يؤمن به، ويعتقد صحته أهل السنة والجماعة السلف الصالح وأتباعهم، وخالف في ذلك الرافضة والنواصب الذين هم الخوارج، خالفوا في ذلك.

فأما الرافضة فإنهم لم يعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وانقسموا إلىٰ أقسام وفرق:

* أشدهم خبثًا **المؤلِّهة** الذين أَلَّهوا عليًّا وذلك في عصره، ومن بقي علىٰ معتقدهم إلىٰ يومنا هذا؛ من المؤلِّهة الذين جعلوا علي بن أبي طالب إلهًا أو له تصرُّف الإله في محاسبة الخلق يوم القيامة والحكم فيهم، فأما في عهد علي بن أبي طالب ﷺ فإنه أحرقهم بالنار، خدَّ لهم أخاديد وأوقد فيها النيران وقذفهم فيها لشدة جرمهم؛ وذلك بغُلُوِّهم فيه كما أسلفت بيانه.

وجفوا أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ، بل أطلقوا علىٰ أبي بكر وعمر الجبت والطاغوت، وأطلقوا عليهما صنمي قريش، وحكموا بكفرهما افتراءً علىٰ الله قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين.

* **والطائفة الثانية: السابَّة** الذي سبُّوا أبا بكر وعمر وعثمان وسائر أصحاب النبي ﷺ إلا نفرًا قليلًا، وهاتان الفرقتان أعداء الله وأعداء رسوله

وأعداء الإسلام والمسلمين.

* **والطائفة الثالثة: الزيدية**؛ وهم أخف، فالزيدية لم يسبُّوا الشيخين ولا تبرءوا منهما، بل اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان مع وجود علي بن أبي طالب وهم يغلون فيه، قالوا: لأنه يصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل، إلا فِرق منهم غَلَوا فلحقوا بالسابَّة، وهذه الفرقة -أي: الزيدية- الذين لم يسبُّوا الشيخين ولم ينكروا خلافتهما لم يخرجها أهل السنة والجماعة من دائرة الإسلام إلا الغلاة منهم.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوصافًا لأبي بكر وعمر بقوله: (**فهما وزيرا رسول الله** ﷺ)؛ حيث كانا لم يفارقَا رسول الله ﷺ في مدخله ومخرجه وأسفاره وجهاده ومجالسه غالبًا.

وقول المؤلف: (**وضجيعاه في قبره**)، حيث دُفنا بجانبه في المكان الذي دُفِن فيه رسول الله ﷺ، ألا وهو حجرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فكان الثلاثة في موضع واحد.

وقوله: (**وجليساه في الجنة، ونُثَلِّثُ بذي النورين**)؛ أي: ثالث الخلفاء الراشدين ذو النورين وهو عثمان رضي الله عنه، وله من المناقب والمزايا ما تحدثت عنه وثائق التأريخ، وهو الوحيد الذي تزوج بنتي نبيٍّ واحدة تلو الأخرىٰ من بني آدم، ولذا أطلق عليه ذي النورين[1]، وله من الفضائل والمناقب ما جاء

(١) انظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ١٩٥٢)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٩/ ٥١)، و«منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٨/ ٢٣٤).

ذكره في السيرة العطرة للخلفاء الراشدين والصحابة أجمعين.

والرابع: علي بن أبي طالب الذي نعته المؤلف بقوله: (التَّقي)؛ أي: صاحب التقوىٰ سرًّا وعلنًا، وله من المناقب كذلك الشيء الكثير، ومنها ما قاله النبي ﷺ: «**لَأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفتَحُ عَلَىٰ يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ.**

فَبَاتَ النَّاسُ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَىٰ، فَغَدَوا كُلُّهُم يَرجُوهُ، فَقَالَ: **أَينَ عَلِيٌّ؟**

فَقِيلَ: يَشتَكِي عَينَيهِ، فَبَصَقَ فِي عَينَيهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَن لَم يَكُن بِهِ وَجَعٌ، فَأَعطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُم حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثلَنَا؟

فَقَالَ: **انفُذ عَلَىٰ رِسلِكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَى الإِسلَامِ، وَأَخبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم، فَوَاللهِ لَأَن يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيرٌ لَكَ مِن أَن يَكُونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ**»[1].

وكذلك قول النبي ﷺ في حقِّهِ: «**أَمَا تَرضَىٰ أَن تَكُونَ مِنِّي بِمَنزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَىٰ؟ غَيرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعدِي**»[2]. وهذه مناقب جليلة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فَضلِ مَن أَسلَمَ عَلَىٰ يَدَيهِ رَجُلٌ، برقم (٣٠٠٩)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: مِن فَضَائِلِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، برقم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مَنَاقِبِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ القُرَشِيِّ الهَاشِمِيِّ أَبِي الحَسَنِ ﷺ، برقم (٣٧٠٦)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: مِن فَضَائِلِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، برقم (٢٤٠٤).

والخلاصة: أن ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة في الفضل والخلافة واحد.

وأما الخوارج فإنهم نصبوا العداوة لأهل البيت لعلي بن أبي طالب ومن كان معه من أصحاب رسول الله ﷺ، واستحلُّوا دماءهم وحكموا عليهم بالكفر، فأمكن الله منهم حين ذاك فانتصرت الطائفة المؤمنة عليهم، حيث أبادوهم، إلا أنهم باقون علىٰ وجه الأرض يتوارثون هذا المذهب الرديء؛ أي الخروج علىٰ أئمة المسلمين والحكم عليهم بالكفر بكبائر الذنوب، بل وبالكذب والبهتان، ومعاداة علماء المسلمين، ففي كل وقت يطلع قرن منهم؛ أي: من الخوارج؛ ويهيئ الله ﷻ من يقطع ذلك القرن، سواء من أهل البر والاستقامة أو من غيرهم، وفي الحديث: «**كلما طلع قرنٌ قطع**»[1].

ويلي في الفضل الخلفاء: بقية العشرة المبشَّرين بالجنة، لأن العشرة علىٰ رأسهم الخلفاء الراشدون، والمراد بالمبشَّرين؛ أي: الذين بشَّرهم النبي ﷺ بالجنة وهم علىٰ قيد الحياة، وذكرهم بأسمائهم[2]، فأحبهم كل صاحب سنة إلىٰ يوم القيامة، لما لهم من الفضل والسابقة في البر والجهاد والعلم وحفظه ونشره فيمن بعدهم.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٠).

(٢) ورد ذكر أسماء العشرة المبشرين بالجنة في حديث أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٦٧٥)، والترمذي في «الجامع» برقم (٣٧٤٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» برقم (٨١٤٧).
والحديث صححه الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص٤٨٧).

وهكذا سائر أصحاب النبي ﷺ وجبت محبتهم علىٰ كل مسلم ومسلمة علىٰ ما يليق بهم من محبة شرعية لا غلو فيها ولا تقصير، لا إفراط ولا تفريط، بل علىٰ وفق الشرع الشريف، وهذا من الحقوق المفروضة علىٰ من جاء بعدهم فإن عليهم محبتهم والترضي عنهم والدعاء لهم؛ لأنهم صنعوا من المعروف والجميل إلىٰ من بعدهم ما لا يكافئهم عليه إلا الله وحده، وذلك بحفظ دولة الإسلام بعد حفظ الله ﷻ.

وحفظ العلم الشرعي الذي لا حياة لعالم الإنس والجن إلا به، فهم الذين حفظوه وهم أوعيته الأولىٰ وهم الذين نشروه في الأمة، وكل علم وصل إلىٰ البشر بعد وفاتهم فهو مأخوذ عنهم ومروي عنهم رواية العدل عن العدل والثقة عن الثقة، لذا وجبت محبتهم محبة شرعية والترضي عنهم والدعاء لهم والاعتراف لهم بالفضل، وأن يُذكَروا بمحاسن أفعالهم وأعمالهم وبالدعاء لهم والاقتداء بهم، وبجانب ذلك يُمسك أهل السنة والجماعة السلف الصالح وأتباعهم يُمسِكون عن الخوض فيما شجر بينهم، فيما حصل بين الصحابة من خلافٍ؛ سواء علميًّا أو سياسيًّا.

كلُّ ذلك لا يخوضون فيه ولا يطلقون ألسنتهم في ذكره والتفكُّه بأعراضهم أبدًا، بل يعتقدون أنهم جميعًا اجتهدوا فيما أتوا من فعل شيء أو ترك شيء، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر، وخطئه معفوٌّ عنه فيه، هذا هو مذهب أهل السنة في حق خيار أهل الأرض بعد النبي ﷺ.

ويكفيهم شرفًا أنهم جاهدوا لتكون كلمة الله هي العليا، والدنيا كلها ظلام بالشرك والضلال، وقُتل من قُتل وبقي من بقي حتىٰ وافاه أجله المحتوم.

وكفاهم أيضًا شرفًا وفضلًا: صحبتهم للنبيﷺ، وأخذهم عنه مشافهة، وقتالهم من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فارتضاهم الله ﷻ لصحبة نبيه -عليه الصلاة والسلام-، وجعَلهم أنصارًا للدِّين وأئمة يُقتدىٰ بهم، فهم صفوة المسلمين وأعلامهم -رضي الله عنهم أجمعين-، والله أعلم.

الصلاةُ وراء الأئمة والجهادُ معهم

١٨- وَلَا نَترُكُ حُضُورَ الجُمُعَةِ، وَصَلَاةٌ مَعَ بَرٍّ هَذِهِ الأُمَّةِ وَفَاجِرِهَا لَازِمٌ، مَا كَانَ مِنَ البِدعَةِ بَرِيئًا، فَإِنِ ابتَدَعَ ضَلَالًا فَلَا صَلَاةَ خَلفَهُ، وَالجِهَادُ مَعَ كُلِّ إِمَامٍ عَدلٍ أو جَائِرٍ، وَالحَجُّ.

الشرح:

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الصلاة وراء الأئمة) والمراد بالصلاة: الصلاة المفروضة كالجُمَع والجماعات، والمراد بالأئمة: السلاطين الذين ولَّاهُم الله أمور المسلمين في كل إقليم من أقاليم الأرض.

وقوله: (والجهاد معهم)؛ أي: الجهاد مع الأئمة سواء كان الأئمة أبرارًا أو فُجَّارًا طالما هم مسلمون، والحج معهم؛ أي: تحت إمارتهم، لأن الحج أميرهُ السُّلطان الذي له ولاية كالخلفاء، أو له ولاية علىٰ جزيرة العرب كهذه الدولة المباركة السعودية في هذا الزمن؛ هم أمراء الحج، الإمام هو أمير الحج أو من ينيبه، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة.

وقوله: (ولا يتركُ حضور صلاة الجمعة) نعم من معتقد أهل السنة

والجماعة أنه يُصلَّىٰ وراء الإمام المسلم من ملك أو رئيس أو أمير وسواء كان برًّا أو فاجرًا جمعة وجماعة، كما كان أبناء الصحابة بل الصحابة أنفسهم كانوا يصلُّون خلف أئمة الجور في آخر عهدهم، كصلاتهم وراء الحجَّاج وقد سفك الدِّماء، لئلا تُشق عصَا المسلمين ولئلا يُعرِّضوا أنفسهم والمسلمين إلىٰ سفك الدِّماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض بسبب المخالفة.

وقوله: (**وصلاتها مع بَرِّ هذه الأمة وفاجرها لازمٌ**)؛ يعني عليك أن تُصلي -أيها المسلم- مع الأئمة، ومن أَسنَدَ إليهم الأئمة صلاة الجمعة والجماعة وصلاة العيدين ونحوها وراءهم ووراء نوابهم.

وقوله: (**ما كان من البدعة بريئًا فإن ابتدع ضلالًا فلا صلاة خلفهُ**).

أي: إن تركَ الصلاة خلف من ابتدع ضلالًا يقيَّد بكون الضلال خروجًا من الملة، فإن كان ضلاله لا يخرجه من الملة فالصلاة خلفه لازمة، إلَّا إن أمكن أن يصلي الجمعة والجماعة مع صاحب سنة بدون شق عصا الطاعة، فلا يلزم المسلم الصلاة خلف الوالي المبتدع، أو الفاجر حينئذٍ، ومن صلاها مع الوالي في هذه الحال صحَّت صلاته.

فهذا هو التفصيل في الصلاة خلف المبتدعين، ولا تترك صلاة الجمعة والجماعة لكون الإمام مبتدعًا، سواء كان الإمام له ولاية أو ليس له إلا الإمامة، فهو مفوَّض من قبل الإمام والسلطان المسلم.

قوله: (**والجهادُ مع كلِّ إمامٍ عدلٍ أو جائرٍ، والحجُّ**)؛ أي: إن الجهاد

واجب مع كل إمام ومع كل سلطان له ولاية علىٰ الناس ودعا إلىٰ الجهاد، أو عقد راية الجهاد واستنفر من استنفر من أفراد الرعية وجب عليه أن يجاهد تحت لوائه، ولو كان فيه فجور، ولو كان فيه فسق ولكنه ليس كافرًا، بل من جملة المسلمين، وجب علىٰ الرعية إجابة دعوته إلىٰ الجهاد وهم مجاهدون في سبيل الله حقًّا إذا عقد لواء الجهاد لقتال الكافرين، أو قتال البغاة، أو قتال الخوارج وجبت طاعته ولو كان فاجرًا.

وأما البر فمن باب أولىٰ له مزيته وله فضله، فالسرعة إلىٰ إجابته من باب أولىٰ، وهكذا الحج إذا كان أميره من أهل الفسق والفجور وجب الحج معه وصح، وأن يكون تحت إمرته والتحاكم إليه عند الحاجة كل هذا من منهج أهل السنة والجماعة، ولم يخالف في ذلك إلا الخوارج؛ فإنهم لا يرضون بإمامة من كان فيه جور أو فيه فسق كما هو مذهبهم في التكفير بالمعاصي جملةً وتفصيلًا، يكفِّرون من ارتكب كبيرة سواء كان إمامًا للناس أو كان فردًا من أفرادهم.

وأنه إن مات علىٰ ذلك عند الخوارج والمعتزلة يكون خالدًا مخلدًا في النار، وهم مخالفون في ذلك منهج أهل السنة والجماعة، وتشهد بمخالفتهم نصوص الكتاب والسنة وجميع علماء الأمة، ومن غير شك أن الخوارج من الفرق الهالكة، وأهل السنة والجماعة أهل الوسطية الصحيحة السليمة، لا يكفِّرون بارتكاب المعاصي إلا المعاصي التي يُكفَّر فاعلها كالإشراك بالله

-تبارك وتعالىٰ- الشرك الأكبر، والكفر الصريح الأكبر، والنفاق الاعتقادي، والإلحاد المخرج من الملة.

قصرُ الصَّلاة والاختيارُ بين الصِّيام والإفطار في الأسفار

١٩ - وَقَصرُ الصَّلَاةِ فِي الأسفَارِ، وَالاختِيَارِ فِيهِ بَينَ الصِّيَامِ وَالإفطَارِ فِي الأسفَارِ إن شَاء صَامَ، وَإن شَاءَ أفطَرَ.

الشرح:

قوله -رحمه الله تعالىٰ-: (**قصر الصلاة في الأسفار، والاختيار بين الصيام والإفطار في الأسفار**)؛ أي: مشروعية قصر الصلاة الرباعية في سفر الطاعة أو السفر المباح لا في سفر المعصية، والخيار بين الصوم والفطر في السفر من معتقد أهل السنة والجماعة، وهو منهج لهم لاستنادهم إلىٰ نصوص الكتاب والسنة، أما قصر الصلاة فقد جاء حكمه في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ففي القرآن قال ﷻ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١] الآية.

ومن السنة فعل النبي ﷺ وقوله، فمن فعله: أنه كان لا يسافر سفرًا مسافة قصر إلا صلَّىٰ الرباعية ركعتين، وممَّا ثبت عنه قوله: «**فُرِضَتِ الصَّلَاةُ**

رَكعَتَينِ رَكعَتَينِ فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّت صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الحَضَرِ»[1].

وكان يقصر في حجة الوداع من يوم خرج من المدينة إلىٰ أن رجع إليها وهو يقصر الصلاة، والمقصود أنه ما عُرف عنه أنه أتم الصلاة في سفر أبدًا، إلا المغرب فإنها لا تقصر لأنها وتر النهار، وإلا الصبح فإنها لا تقصر لأنها تُطوَّل فيها القراءة وهي ركعتان.

وأما الفطر فاتفق العلماء أن من شاء أن يصوم في السفر صام ومن شاء أن يُفطر أفطر؛ لقول أنس بن مالك: غَزَونَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِسِتَّ عَشرَةَ مَضَت مِن رَمَضَانَ، فَمِنَّا مَن صَامَ وَمِنَّا مَن أَفطَرَ، فَلَم يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَىٰ المُفطِرِ، وَلَا المُفطِرُ عَلَىٰ الصَّائِمِ[2]، وما أنكر النبي ﷺ إلا علىٰ الذين عرَّضوا أنفسهم للمشقة التي لا يطيقونها، فقد «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَىٰ رَجُلًا قَدِ اجتَمَعَ النَّاسُ عَلَيهِ، وَقَد ظُلِّلَ عَلَيهِ، فَقَالَ: مَا لَهُ؟

قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ!

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: التَّارِيخِ، مِن أَينَ أَرَّخُوا التَّارِيخَ، برقم (٣٩٣٥)، ومسلم في كتاب: صَلَاةِ المُسَافِرِينَ وَقَصرِهَا، برقم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: لَم يَعِب أَصحَابُ النَّبِيِّ ﷺ بَعضُهُم بَعضًا فِي الصَّومِ وَالإِفطَارِ، برقم (١٩٤٧)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: جَوَازِ الصَّومِ وَالفِطرِ فِي شَهرِ رَمَضَانَ لِلمُسَافِرِ فِي غَيرِ مَعصِيَةٍ إِذَا كَانَ سَفَرُهُ مَرحَلَتَينِ فَأَكثَرَ، وَأَنَّ الأَفضَلَ لِمَن أَطَاقَهُ بِلَا ضَرَرٍ أَن يَصُومَ، وَلِمَن يَشُقُّ عَلَيهِ أَن يُفطِرَ، برقم (١١١٦).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيسَ البِرَّ أَن تَصُومُوا فِي السَّفَرِ»[1].

أما إذا لم تلحقه مشقة فإن له أن يصوم وله أن يفطر، وإنما الخلاف بين العلماء في الأفضل، هل الأفضل الصيام أو الفطر ولو مع عدم المشقة، والصحيح أن الأفضل هو الإفطار للأخذ بالرخصة التي هي من نعم الله فالآخذ بها شاكر للنعمة.

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَن تُؤتَىٰ رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَن تُؤتَىٰ عَزَائِمُهُ»[2]. لذا قال المؤلف: (وإقصارُ الصلاة في الأسفار)؛ أي: من معتقد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: قَولِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَن ظُلِّلَ عَلَيهِ وَاشتَدَّ الحَرُّ: «لَيسَ مِنَ البِرِّ الصَّومُ فِي السَّفَرِ»، برقم (١٩٤٦)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: جَوَازِ الصَّومِ وَالفِطرِ فِي شَهرِ رَمَضَانَ لِلمُسَافِرِ فِي غَيرِ مَعصِيَةٍ إِذَا كَانَ سَفَرُهُ مَرحَلَتَينِ فَأَكثَرَ، وَأَنَّ الأَفضَلَ لِمَن أَطَاقَهُ بِلَا ضَرَرٍ أَن يَصُومَ، وَلِمَن يَشُقُّ عَلَيهِ أَن يُفطِرَ، برقم (١١١٥).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان في «الصحيح» برقم (٣٥٤)، والطبراني في «الكبير» برقم (١٠٠٣٠)، وفي «الأوسط» برقم (٨٠٣٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٣٦٠٦)، وفي «السنن الكبرىٰ» برقم (٥٤١٥)، وورد بلفظ: «كمَا يَكرَهُ أَن تُؤتَىٰ مَعصِيَتُهُ». أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٥٨٦٦)، وغيره.

قال الألباني بعد تخريجه هذا الحديث في «الإرواء» (٣/ ١٣) (٥٦٤): «وجملة القول أن الحديث صحيح بلفظيه المتقدمين: «... كما يكره أن تؤتىٰ معصيته»، «... كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه»».

وأما إنكار شيخ الإسلام ابن تيمية اللفظ الثاني في أول «كتاب الإيمان» فمما لا يلتفت إليه بعد وروده من عدة طرق بعضها صحيح كما سلف».

أهل السنة والجماعة ومنهجهم.

(والاختيار فيه بين الصيام والإفطار في الأسفار إن شاء صام وإن شاء أفطر): من معتقد أهل السنة والجماعة ومنهجهم كما مضىٰ.

اجتماعُ أئمَّة الهُدى الماضين على هذه المقالات

٢٠- هَذِهِ مَقَالَاتٌ وَأفعَالٌ اجتَمَعَ عَلَيهَا المَاضُونَ الأَوَّلُونَ مِن أئِمَّةِ الهُدَىٰ، وَبِتَوفِيقِ اللهِ اعتَصَمَ بِهَا التَّابِعُونَ قُدوَةً وَرِضًا، وَجَانَبُوا التَّكَلُّف فِيمَا كُفُوا، فَسُدِّدُوا -بِعَونِ اللهِ- وَوُفِّقُوا، لَم يَرغَبُوا عَن الاتِّبَاعِ فَيُقَصِّرُوا، وَلَم يُجَاوِزُوهُ تَزَيُّدًا فَيَعتَدُوا، فَنَحنُ بِاللهِ وَاثِقُونَ، وَعَلَيهِ مُتَوَكِّلُونَ، وَإِلَيهِ فِي اتِّبَاعِ آثَارِهِم رَاغِبُونَ.

الشرح:

قوله: (اجتماعُ أئمَّة الهُدىٰ الماضين علىٰ هذه المقالات)، المراد بالاجتماع: الاتفاق والائتلاف، وأئمة الهدىٰ هم الذين سلكوا سبيل الهداية؛ أي: سلكوا الصراط المستقيم من الماضين وعلىٰ رأسهم أصحاب النبي ﷺ، ويليهم القرون المفضلة الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية، وكل تابع لهم إلىٰ يوم الدِّين، كلهم اجتمعوا علىٰ هذه المقالات، الإشارة تعود إلىٰ ما سبق ذكره من أول الرسالة إلىٰ هنا هو بيان معتقد أهل السنة والجماعة فيما أورده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب الاعتقاد وبيان ما يضادُّه والتحذير منه.

لذا قال: (هذه مقالاتٌ وأفعالٌ اجتمع عليها الماضون الأوَّلون من أئمة الهدىٰ)؛ أي: ما سطَّره وأملاه في هذه العقيدة أقوال وأفعال مصدرها النصوص من الكتاب والسنة، لذا اجتمع عليها أئمة العلم السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار وأتباعهم من أئمة الهدىٰ الذين جمعوا بين العلم والعمل، وفقهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، فاعتصموا بذلك امتثالًا لأمر الله لهم بقوله الحق: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فهم قدوة الأمة لاقتدائهم بنبي الأمة -عليه الصلاة والسلام-، وهم الذين رضي أئمة العلم من بعدهم وأتباعهم بأقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم الظاهرة والباطنة، وجانبوا التكلف لأن دين الإسلام يسر وسهل لا تكلف فيه ولا مشقة ولا عنت، فجانب السلف وأتباعهم التكلف في العمل.

قوله: (وجانبوا التكلف فيما كُفوا فسُدِّدوا)؛ يعني: كفاهم الأولون وهم مشوا علىٰ الطريق السليم السديد.

قوله: (فسُدِّدوا بعون الله ووُفِّقوا)؛ يعني: وقفوا حيث وقف القوم من أئمة الهدىٰ قبلهم من الصحابة الكرام والتابعين لهم من الأئمة الأعلام، ووقفوا حيث وقف القوم فلم يتكلفوا؛ لأن من تكلفوا وقعوا في البدع والضلالات.

قوله: (لم يرغبوا عن الاتباع فيُقصروا)؛ يعني: لم يزهدوا في اتباع

السلف الصالح، وإنما اتبعوهم كما قال قائلهم: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا»[١].

وقال آخر[٢]:

وكُلُّ خيرٍ في اتِّباعِ من سلف وكلُّ شرٍّ في ابتداع مَن خَلَف

فالسلف الصالح أهل السنة والجماعة في كل عصر ومصر وزمان ومكان يتبعون من قبلهم من أئمة الهدىٰ في العقيدة والشعائر التعبدية، وفي كل شأن من شئون دينهم.

قوله: (**فلم يقصِّروا ولم يجاوزوه**)، ما كان عليه الأوائل فحسبهم أنه وقفوا حيث وقف القوم وعملوا كما عمل القوم ظاهرًا وباطنًا ولم يعتدوا، فإن الاعتداء والرغبة عن عقيدة السلف ومنهجهم ضلال، والله أعلم.

ثم ختم هذا الفصل بقوله: (**فنحن بالله واثقون**)، وهو أمر واجب أن يثق كل عبد بربه -تبارك وتعالىٰ- ويتَّكل عليه، يثق به في جميع شئون دينه

---

(١) هو من قول ابن مسعود: أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٧٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٢٠٢٤)، والدارمي في «السنن» برقم (٢١١)، والمروزي في «السنة» (٧٨)، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» برقم (١٧٤)، وغيرهم.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨١): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصحيح».

(٢) هو اللقاني صاحب كتاب «جوهرة التوحيد»، وهو من أهم متون الأشعرية المتأخرة.

وليت الأشعرية طردوا أصلهم هذا واعتمدوا قول السلف في أصول الدين كلها، لكنهم تناقضوا وخالفوا هذا الأصل.

ودنياه، ويتوكل عليه التوكل الشرعي، وهو يأتي بالأسباب ويطلب قضاء الحاجات ودفع الشر والمحرمات، يرجو ذلك كله من الله وحده دون سواه.

وقوله: (**وإليه في اتِّباع آثارهم راغبون**)؛ أي: آثار السلف الذين مضوا لأنهم اجتمعوا علىٰ الهدىٰ، واجتنبوا الضلالة التي وقع فيها أهل الابتداع، حمانا الله من شر الابتداع ورزقنا حسن الاتباع.

المحافظةُ على أداء الفرائض والرواتب واجتنابُ المحرمات

٢١- فَهَذَا «شَرحُ السُّنَّة» تَحَرَّيتُ كَشفَهَا، وَأوضَحتُهَا؛ فَمَن وَفَّقَهُ اللهُ لِلقِيَامِ بِمَا أَبَنتُه مَعَ مَعُونَتِهِ لَهُ بِالقِيَامِ عَلَىٰ أدَاءِ فَرَائِضِهِ بِالاحتِيَاطِ فِي النَّجَاسَاتِ، وَإسبَاغِ الطَّهَارَةِ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ، وَأدَاءِ الصَّلَوَاتِ عَلَىٰ الاستِطَاعَاتِ، وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ عَلَىٰ أهلِ الجِدَاتِ، وَالحَجِّ عَلَىٰ أهلِ الجَدَة وَالاستِطَاعَاتِ، وَصِيَامِ الشَّهرِ لأهلِ الصِّحَّاتِ، وَخَمسُ صَلَوَاتٍ سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: صَلَاةَ الوِترِ فِي كُلِّ لَيلَةٍ، وَرَكعَتَا الفَجرِ، وَصَلَاةَ الفِطرِ وَالنَّحرِ، وَصَلَاةَ كُسُوفِ الشَّمسِ وَالقَمَرِ إذَا نَزَلَ، وَصَلَاةَ الاستِسقَاءِ مَتَىٰ وَجَبَ.

خاتمةُ الرِّسالة

٢٢- وَاجتِنَابُ المَحَارِمِ، وَالاحتِرَازُ مِنَ النَّمِيمَةِ، وَالكَذِبِ، وَالغِيبَةِ، وَالبَغيِ بِغَيرِ الحَقِّ، وَأن يُقَالَ عَلَىٰ اللهِ مَا لَا يُعلَمُ، كُلُّ هَذَا كَبَائِرُ مُحَرَّمَاتٌ.

وَالتَّحَرِّي فِي المَكَاسِبِ، وَالمَطَاعِمِ، وَالمَحَارِمِ، وَالمَشَارِبِ، وَالمَلَابِسِ، وَاجتِنَابِ الشَّهَوَاتِ، فَإنَّهَا دَاعِيَةٌ لِرُكُوبِ المُحَرَّمَاتِ؛ فَمَن رَعَىٰ حَولَ الحِمَىٰ؛

فَإِنَّهُ يُوشِكُ أن يَقَعَ فِي الحِمَىٰ.

فَمَن يُسِّرَ لِهَذَا فَإِنَّهُ مِنَ الدِّينِ عَلَىٰ هُدًى، وَمِنَ الرَّحمَةِ عَلَىٰ رَجَاءٍ.

وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ إِلَىٰ سَبِيلِهِ الأقوَمِ، بِمَنِّهِ الجَزِيلِ الأقدَمِ، وَجَلَالِهِ العَلِيِّ الأكرَمِ.

وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَن قَرَأَ عَلَينَا السَّلَامَ، وَلَا يَنَالُ سَلَامُ اللهِ الضَّالِّينَ.

وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

نُجِزَت الرِّسَالَةُ بِحَمدِ اللهِ وَمَنِّهِ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأصحَابِهِ وَأزوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ، وَسَلَّم كَثِيرًا كَثِيرًا.

الشرح:

قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (المحافظة علىٰ أداء الفرائض والرَّواتب واجتناب المحرَّمات)؛ أي: إن منهج أهل السنة والأثر السلف الصالح وأتباعهم المحافظة علىٰ أداء الفرائض، والفرائض جمع فريضة وهي ما فرضها الله -تبارك وتعالىٰ- وفرضها رسوله أو فرضها رسوله ﷺ علىٰ الأمة.

وعلىٰ رأس الفرائض: أركان الإسلام والإيمان والإحسان، ومن سنة السلف التي يحافظون عليها إقامة الرواتب، والمراد بها الصلاة قبل الفرائض وبعدها، وهي السنن الراتبة قبل الفريضة وبعدها، وقد جاء عدُّها فيما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلىٰ في يومه وليلته من غير الفريضة

اثنتي عشرة ركعة بنىٰ الله له بيتًا في الجنَّة»[١].

أربعًا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل الفجر، فأهل السنة والجماعة يحافظون علىٰ هذه الرواتب، ولم يقولوا بوجوبها أو فرضيتها وإنما هي من السنن الراتبة، وفيها من الفضل ما لا يحصىٰ كما في هذا الحديث وكما ثبت أن الرواتب مكمِّلات للفرائض من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبدُ يَومَ القِيَامَةِ مِن عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِن صَلُحَت فَقَد أَفلَحَ وَأَنجَحَ، وَإِن فَسَدَت فَقَد خَابَ وَخَسِرَ، فَإِن انتَقَصَ مِن فَرِيضَتِهِ شَيءٌ، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انظُرُوا هَل لِعَبدِي مِن تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ**»[٢].

والفرائض يحصل فيها نقص ولا شك، فمن رحمة الله شُرعت الفرائض والنوافل من الصلوات ومن سائر المفروضات لتُكمَّل الفرائض من السنن،

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» برقم (٤١٥)، والنسائي في «السنن» برقم (١٧٩٥)، وابن خزيمة في «الصحيح» برقم (١١٨٩)، والطبراني في «الكبير» برقم (٤٣٥)، وفي «الأوسط» برقم (١١)، والحاكم في «المستدرك» برقم (١١٧٣)، وغيرهم، والحديث في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٥٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» برقم (٨٦٤)، والترمذي في «الجامع» برقم (٤١٣)، والنسائي في «السنن» برقم (٤٦٥)، وغيرهم.
والحديث في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٥٤٠).

ومن سنة السلف محافظتهم علىٰ حفظ أنفسهم من الوقوع في المحرمات وما كان وسيلة إلىٰ المحرمات، إذ ما كان وسيلة إلىٰ محرم فهو محرم، فهم يحفظون حواسَّهم؛ حاسة السمع وحاسة البصر واللسان، ويحفظون جوارحهم من الوقوع في المحرمات ومن الوقوع في وسائل المحرمات من المتشابهات، لمعرفتهم أن الله ﷻ يثيب علىٰ الطاعات ويعاقب علىٰ المحرمات.

فهم يجمعون دائمًا بين الخوف والرَّجاء، الخوف من الله فلا يقصِّرون في المفروضات والواجبات ولا يرتكبون المحرمات مع رجائهم رحمة الله ﷻ ومغفرته ورضوانه، فلما كان هذا آخر باب الرسالة؛ رسالة إسماعيل بن يحيىٰ المزني المتوفىٰ سنة ٢٦٤هـ؛ أي: من علماء القرون المفضلة قال: **(فهذا شرح السنة)** إشارة إلىٰ ما سبق ذكره.

وقوله: **(تحرَّيتُ كشفها)**؛ أي: إيضاحها وبيانها.

وقوله: **(وأوضحتها)**؛ أي: بيَّنتُها بأدلة الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

وقوله: **(فمن وفقه الله للقيام بما أبنته مع معونته له بالقيام علىٰ أداء فرائضه بالاحتياط في النجاسات، وإسباغ الطَّهارة علىٰ الطَّاعات، وأداء الصلوات علىٰ الاستطاعات، وإيتاء الزكاة علىٰ الجدات، والحج علىٰ أهل الجدة والاستطاعات، وصيام الشهر لأهل الصحَّات، وخمس صلوات سنها رسول الله ﷺ من بعد الصلوات: صلاة الوتر في كل ليلة، وركعتي الفجر،**

وصلاة الفطر والنَّحر، وصلاة كسوف الشَّمس والقمر إذا نزل، وصلاة الاستسقاء متىٰ وجب -أي: وقع سببه وهو القحط-).

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يقوم بالمفروض عليه والواجب ويتقرب إلىٰ الله بالمستحب، سواء بما يتعلق بصحة الاعتقاد أو بالشعائر التعبدية أو بالابتعاد عن المحارم إلا إذا أعانه الله -تبارك وتعالىٰ-، إذ لا غنىٰ لمخلوق عن إعانة الله -تبارك وتعالىٰ- له، كما قال سبحانه في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. فلا يبلغ الإنسان شيئًا من مقاصده إلا إذا أعانه الله -تبارك وتعالىٰ-.

وقوله: **(مع معونته له بالقيام علىٰ أداء فرائضه)** إلىٰ آخر ما ذكر من إقامة الفرائض والتقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بها وبسائر المستحبات والسنن الراتبة، كل ذلك من حقوق العقيدة ومكمِّلات الدِّين؛ إذ إن العقيدة والعمل متلازمان، العمل الظاهر والعقيدة العمل الباطن وهما متلازمان كما أسلفت لا ينفك أحدهما عن الآخر.

وبالإضافة إلىٰ فعل الواجبات والمفروضات اجتناب المحارم والاحتراز منها، وقد ذكر المؤلف من المحارم النميمة، وهي شر مستطير علىٰ أهلها، والمراد بالنميمة: نقل الكلام من شخص إلىٰ آخر علىٰ سبيل الإفساد، أو من قوم إلىٰ آخرين علىٰ سبيل الإفساد بينهم حتىٰ تفسد أخوتهم وتتحول الأخوة إلىٰ شحناء وعداوة وبغضاء بسبب فعل النمام الذي يجرُّ من الفساد ما يفوق

سحر الساحر.

وقد ذمَّ الله ﷻ هذا العمل وصاحبه في القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم:١١-١٢] الآية.

وقال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمَّام**»(١).

وفي رواية: «**لا يدخل الجنَّة قتَّات**»(٢). وهو النمَّام الذي ينقل الكلام من شخص لآخر أو من قوم لآخرين علىٰ سبيل الإفساد بينهم كما سبق بيانه قريبًا.

ووجوب اجتناب الكذب؛ لأن الكاذب مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب وسالك سبيل الفجور والفجور طريق النار، لقول النبي ﷺ: «**وَإِيَّاكُم وَالكَذِبَ**»؛ أي: اتركوا الكذب، إيَّاكم: احذروا الكذب، «**فَإِنَّ الكَذِبَ يَهدِي إِلَىٰ الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا**»(٣). فالصدق منجاة، والكذب يخزي صاحبه في الدنيا والآخرة، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ غِلَظِ تَحرِيمِ النَّمِيمَةِ، برقم (١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: مَا يُكرَهُ مِنَ النَّمِيمَةِ، برقم (٦٠٥٦)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ غِلَظِ تَحرِيمِ النَّمِيمَةِ، برقم (١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]. وَمَا يُنهَىٰ عَنِ الكَذِبِ، برقم (٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: قُبحِ الكَذِبِ وَحُسنِ الصِّدقِ وَفَضلِهِ، برقم (٢٦٠٧).

قوله: **والغيبة**؛ أي: اتركوا الغيبة فإنها تخدش العقيدة وتنقص ثواب العمل ويحمل صاحبها وزرًا يدفعه من حسناته يوم القيامة، فإن لم توجد له حسنات كافية أُخِذ من سيِّئات من اغتابهم وطرحت عليه فطرح في النار.

والمراد بالغيبة: ذكرك أخاك بما يكره، يقول النبيﷺ فيها هي: «**ذِكرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكرَهُ**.

قِيلَ: أَفَرَأَيتَ إِن كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟

قَالَ: **إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغتَبتَهُ، وَإِن لَم يَكُن فِيهِ فَقَد بَهَتَّهُ**»(١).

والبُهت أشد إثمًا من الغيبة، لأنه يجتمع فيه الكذب والغيبة، فهو يرميه بشيء ليس فيه؛ وهذا يسمىٰ بهتانًا، ولا يستثنىٰ من الغيبة إلا ما كان علىٰ سبيل النصيحة، كبيان شأن المشركين وخطرهم وبيان بدع المبتدعين وبيان ضلال الضالين ليحذرهم الناس بهذه النية، لا حرج علىٰ من تكلم فيهم من أجل بيان أمرهم لئلا يغتر الناس بأفعالهم ودعوتهم، فهذا يستثنىٰ من الغيبة المحرمة، والبغي هو الاعتداء علىٰ الغير بدون حق.

وقوله: «**والبغي بغير الحق، وأن يقال علىٰ الله ما لا يعلم**».

قلت: وهذا من أعظم الذنوب القول علىٰ الله بدون علم، أن يقول القائل: قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهىٰ عن كذا، وهو لا يعلم شيئًا، ولو أصاب فإنه

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، برقم (٢٥٨٩).

آثم، بل إن القول علىٰ الله بلا علم إثمه أشد من إثم الشرك بالله -تبارك وتعالىٰ-[1]، كل هذا من الكبائر المحرمات التي لا يجوز للمسلم أن يقربها أو يحوم حولها، بل يجب عليه أن ينزه نفسه عن هذه المحارم وغيرها من المحرمات كما ألزم نفسه بالقيام بالفرائض والواجبات وتقرب إلىٰ الله بالمستحبات.

تمت والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ الصادق الأمين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين» (١/ ٣١): «وَقَد حَرَّمَ اللهُ سُبحَانَهُ القَولَ عَلَيهِ بِغَيرِ عِلمٍ فِي الفُتيَا وَالقَضَاءِ، وَجَعَلَهُ مِن أَعظَمِ المُحَرَّمَاتِ، بَل جَعَلَهُ فِي المَرتَبَةِ العُليَا مِنهَا، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

فَرَتَّبَ المُحَرَّمَاتِ أَربَعَ مَرَاتِبَ، وَبَدَأَ بِأَسهَلِهَا وَهُوَ الفَوَاحِشُ، ثُمَّ ثَنَّىٰ بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحرِيمًا مِنهُ وَهُوَ الإِثمُ وَالظُّلمُ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِمَا هُوَ أَعظَمُ تَحرِيمًا مِنهُمَا وَهُوَ الشِّركُ بِهِ سُبحَانَهُ، ثُمَّ رَبَّعَ بِمَا هُوَ أَشَدُّ تَحرِيمًا مِن ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ القَولُ عَلَيهِ بِلَا عِلمٍ، وَهَذَا يَعُمُّ القَولَ عَلَيهِ سُبحَانَهُ بِلَا عِلمٍ فِي أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ وَفِي دِينِهِ وَشَرعِهِ».

وقال في «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٩): «وَأَصلُ الشِّركِ وَالكُفرِ هُوَ القَولُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلمٍ، فَإِنَّ المُشرِكَ يَزعُمُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ مَعبُودًا مِن دُونِ اللهِ، يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَيَشفَعُ لَهُ عِندَهُ، وَيَقضِي حَاجَتَهُ بِوَاسِطَتِهِ، كَمَا تَكُونُ الوَسَائِطُ عِندَ المُلُوكِ، فَكُلُّ مُشرِكٍ قَائِلٌ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلمٍ، دُونَ العَكسِ، إِذِ القَولُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلمٍ قَد يَتَضَمَّنُ التَّعطِيلَ وَالِابتِدَاعَ فِي دِينِ اللهِ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّركِ، وَالشِّركُ فَردٌ مِن أَفرَادِهِ».

وختام خاتمة تعليقاتي المسمىٰ:

«الجنة في إيضاح كتاب شرح السنة للمزني»

القصيدة التالية التي قلتها وأوردتها في الديوان المليح تحت عنوان:

ملاطفة الأبناء والأصحاب ليكونوا من أولي الألباب

آخر خبرٍ عن الجُنَّةِ المرضية بالقصيدة المُزَنية

والجُـنَّةَ المُثلىٰ بعـزمٍ تهـيَّأت ... لتـزورَ إلفـًا فـي بـلاد الجزائـرِ

وسـفيرُها المأمـونُ بَـرٌّ ومحـرَمٌ ... أبـو حـاتم نجلـي وشيخُ المنابـرِ

حـباهُ إلهـي فـي الحـياة عـزيمةَ ... يُعـينُ بهـا أهـلَ التُّقىٰ والبـصائرِ

ويظـل دومًـا بالعلـوم مجاهـدًا ... يسعىٰ حثيثًا في المسا والبواكرِ

ويـودّ قـومًا فـي الـصلاح تنافـسوا ... فغـدوا ملـوكًا يـا محـبُّ فـبادرِ

ويـذودُ خـصمًا عـن حياضِ شـريعةٍ ... وعن نورها الوضاء من وحي قادرِ

أبـا حـاتمٍ مـاذا أقـولُ لجُنَّتـي ... إذا سـألتني عـن رفـيقٍ مـسافرِ

لـتكون معـه فـي حـياءٍ وحـشمةٍ ... وحسنِ سـلوك بـاطنٍ ثـمَّ ظاهـرِ

أقـولُ لهـا مهـلًا فلـستِ بغـربةٍ ... فـي دورك الأولىٰ قـصور الأكابـرِ

وسفيرُكِ المأمون للعهدِ حافظٌ ... سيعودُ يومًا مع رجالٍ عباقرِ

ويقول هيَّا يا سلاحَ مجاهدٍ ... نمضي سويًّا صوب دنيا الجزائرِ

والمنَّة العظمىٰ قريبٌ قدومها ... هي الكوكب الدريُّ طوبىٰ لناظرِ

تمشي الهوينا من بلادٍ بعيدة ... من دون خوفٍ من عدوٍّ وغادرِ

هي جُنَّة أخرىٰ يشع ضياؤها ... للناس طرًّا من أديب وذاكرِ

أهلًا ألوفًا كل حينٍ وومضةٍ ... وسهلًا وطئتِ يا جلاء البصائرِ

وحافظكِ المولىٰ بعلم وقدرةٍ ... ويُعليكِ دومًا بالهدىٰ والبشائرِ

وحملتِ علمًا في سرورٍ وبهجة ... ومنهجكِ الأعلىٰ جليلُ المصادرِ

أبقاكِ ربِّي في سطورٍ مضيئةٍ ... وجمالِ خطٍّ من رجالٍ أكابرِ

والحمد للمولىٰ أرومُ ثوابه ... والشكر مني في المسا والبواكرِ

وصلَّىٰ إلهي كل حينٍ ولحظةٍ ... علىٰ المصطفىٰ المختارِ أسّ المفاخرِ

وعلىٰ آله الأخيار ألفُ تحيَّةٍ ... تغشىٰ بجدٍّ كلَّ شهمٍ وصابرِ

وتحيَّةً مني تُزفُّ لمحسنٍ ... قد أحكم الأولىٰ بجهد العباقرِ

وثالثة حسناءُ فاق جمالها ... جمال فنون طيباتٍ نواضرِ

فاقتْ بحسنٍ ثم ذكرىٰ ومرتعٍ ... ظلٍّ ظليلٍ من جميل المناظرِ

طابتْ أصولٌ والفروعُ عجيبةٌ ... ورأيتها نورًا مضيئًا لسائرِ

ما أجملَ التيسير[1] حين زبرتها ... فغدتْ كنوزًا من أصيل القناطرِ

وأتتْ بعلمٍ للقلوب مطهِّرٌ ... فاحرص عليها قبل يومِ المقابرِ

حبّرتها طوعًا أريد ثوابها ... من ربنا الأعلىٰ معينِ المسافرِ

فكم من أجورٍ قد أعدتْ لعالمٍ ... ومثوبةٌ تبقىٰ هنيئًا لصابرِ

دون انقطاع من كريمٍ ومحسنٍ ... يعطي عطاءً كلّ برٍّ وفاجرِ

وخيرُ عطاءٍ يا أُخيَّ شريعةٌ ... عمّتْ جميع الأرض طوبىٰ لذاكرِ

حييتِ يا تيسيرُ منّي تحيةً ... يعمُّ شذاها كلَّ بادٍ وحاضرِ

وصلىٰ إله العرش ما طارَ طائرٌ ... أو سبَّح مخلوقٌ بليلٍ وباكرِ

علىٰ المرسلِ الهادي بخيرِ شريعةٍ ... أضاءتْ بنورٍ يا ضجيعَ المنابرِ

وسلّم ربي كلّ حينٍ ولحظةٍ ... علىٰ المصطفىٰ الداعي لحسن السرائرِ

وعلىٰ آله الأبرارِ تُهدىٰ تحيةٌ ... مقرونةٌ بالمسكِ طيبِ الأكابرِ

---

(١) «تيسير الرب الرحيم شرح لامية المجدد ابن عبد الحليم رَحِمَهُ اللَّهُ».

فهرس الموضوعات

مقدمة الشارح ٥
ترجمة مختصرة للإمام إسماعيل بن يحيىٰ المزني ٧
اسمه ٧
مولده ٧
مؤلفاته ٧
ثناء العلماء عليه ٨
مشايخه ٩
تلاميذه ٩
عقيدته ٩
وفاته ١٠
بداية الشرح ١١
معنىٰ الحمد ١٧
العُلُو ٢١
القضاء والقدر ٢٥
الملائكةُ ٣٠

آدم عليه السلام ٤٠
أعمالُ أهلِ الجنَّة والنَّار ٤٣
الإيمانُ ٤٦
القرآن ٥١
الصِّفاتُ ٥٤
الآجال ٥٨
القبر ٦٠
النُّشورُ والحسابُ ٦٣
الجنة والنار ٦٩
طاعةُ الأئمة والأمراء، ومنعُ الخروج عليهم ٩٥
الإمساكُ عن تكفير أهل القبلة ٩٨
الصَّحابةُ رضي الله عنهم ١٠٤
الصلاةُ وراء الأئمة والجهادُ معهم ١١١
قصرُ الصَّلاة والاختيارُ بين الصِّيام والإفطار في الأسفار ١١٥
اجتماعُ أئمَّة الهُدىٰ الماضين علىٰ هذه المقالات ١١٩
المحافظةُ علىٰ أداء الفرائض والرواتب واجتنابُ المحرمات ١٢٣
خاتمةُ الرِّسالة: قصيدة (ملاطفة الأبناء والأصحاب ليكونوا من أولي الألباب) ١٣١
الفهرس ١٣٤